معهد الدراسات العليا الدينية واللغوية
The Institute of Higher Education in Linguistics & Religious Studies

إعجاز القرآن

بحث في وجوه إعجاز القرآن الكريم عند علماء المسلمين وبيان القول الفصل فيه

الدكتور علاء السالم

المحتويات

المقدمة: ٥

١. مسائل في الإعجاز: ٧

١,١- معنى الإعجاز وغرضه: ٧

٢,١- هل يضرُّ الجهل بوجه الإعجاز؟ ٩

٣,١- القدر المعجز من القرآن: ١٠

٤,١- هل القرآن معجز للإنس فقط؟ ١٢

٥,١- هل القرآن معجز لعموم الناس أو العرب فقط؟ ١٣

٦,١- هل تؤثر الترجمة على إعجاز القرآن؟ ١٤

٧,١- هل الإعجاز في اللفظ أو المعنى؟ ١٦

٢. وجوه الإعجاز بنظر العلماء: ١٨

١,٢- معاني بعض الوجوه: ١٨

٢,٢- وجوه الإعجاز عند العلماء: ٢٠

٣. مناقشة العلماء لوجوه الإعجاز: ٢٦

٤. وقفة مع الفصاحة وضابطها: ٣٢

١,٤- شروط فصاحة الكلمة: ٣٣

٢,٤- شروط فصاحة الكلام: ٣٧

٥. مناقشة الإعجاز اللفظي للقرآن: ٤٣

مفارقة غريبة: ٤٧

٦. اللغة نتاج تطوري: ٤٨

١,٦- اللغة ظاهرة اجتماعية: ٤٨

٢,٦- هل اللغة توقيف أم تواضع؟ ٥١

٣,٦- خطّان مهيمنان على الساحة العلمية: ٥٤
٤,٦- تطورات بايولوجية ساهمت بنشوء وتطور اللغة: ٥٧
٥,٦- تلخيص وبناء: ٥٨
٦،٦- سير اللغة من البساطة إلى التعقيد: ٦٢
٧,٦- هل اللغة العربية أفضل اللغات؟ ٦٥
٧. لغة القرآن والعوالم العلوية: **٧٥**
١,٧- هل الله يتكلم بلغة، وهل لغة القرآن كلامه؟ ٧٥
٢,٧- لغة العوالم العلوية: ٨١
٣,٧- الوحي والقرآن المُوحى: ٨٦
٨. حقيقة القرآن والكتب المقدسة: **٩٥**
١,٨- القرآن والكتب المقدسة بنظر العلماء: ٩٥
٢,٨- حقيقة القرآن وعلاقته بالكتب المقدسة من وجه آخر: ٩٧
٩. القرآن وخلافة محمد (ص): **١٠٦**
١,٩- القرآن ونبوة محمد (ص) بنظر العلماء: ١٠٦
٢,٩- هل طلب الرسول (ص) من أحد معارضة القرآن لفصاحته؟ ١١٠
٣,٩- القرآن معجزة كبقية المعاجز المادية عند العلماء: ١١٨
٤,٩- خلافة رسول الله (ص) وموقع القرآن منها: ١٢٠
١٠. القول الفصل في إعجاز القرآن: **١٢٨**
١,١٠- شروط الوجه الصحيح: ١٢٨
٢,١٠- السيد أحمد الحسن يبيّن القول الفصل في الإعجاز: ١٣٢
ملحق: أجوبة السيد أحمد الحسن في موضوع الإعجاز **١٤١**
نتائج البحث: **١٤٨**
مصادر البحث **١٥١**

المقدمة:

إعجاز القرآن الكريم مسألة احتلت مساحة واسعة في كلمات وبحوث علماء المسلمين بشتّى طوائفهم، وبالرغم من تعدّد أقوالهم فيها لكنها - أي أقوال العلماء - تكاد تكون متفقة على أنّ الإعجاز اللغوي من جهة الفصاحة والبلاغة أهمها وأكثرها شهرة بينهم، وبالتالي فإنّ اللغة العربية - بنظرهم - وحدها القادرة على حمل مثل هذا الإعجاز الذي لا يكشف عن إعجاز لغة القرآن فحسب ولكنه أيضاً يثبت نبوة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) بعد فشل العرب في التحدي وعجزهم عن مجاراة فصاحة القرآن وبلاغته، هذا هو الشائع في كلامهم عموماً.

وبدون شك، فإنّ المتتبع لبحوث العلماء يجد بوضوح تام أنّ مسألة تحديد وجه الإعجاز عندهم اجتهادية صرفة، بُنيت على الآراء والظنون، ولو كان دليلها قطعياً وواضحاً لديهم لما اختلفوا فيها وكانت لديهم آراء عديدة وتفاصيل كثيرة كما سنراها خلال البحث.

وعموماً، بحث "إعجاز القرآن" يطرح مقولة الإعجاز اللغوي على مائدة البحث والدراسة، ويخلص - بعد التحقيق - إلى عدم إمكان قبولها عقلاً ونقلاً:

- أما عقلاً؛ فلترتب محاذير خطيرة لا يمكن قبولها كالطعن بعدالة الله وحكمته سبحانه، وإلا ما فرق العرب عن غيرهم لينفردوا بإدراك سر الاعجاز دون سواهم مع أنّ القرآن كتاب إلهي للجميع وليس للعرب فقط.

- وأما نقلاً؛ فلأن ما ذكروه ليس عليه دليل وشاهد من قرآن أو سنّة، فلا آيات القرآن ولا الروايات ذكرت أنّ إعجاز القرآن لغوي.

من جهة أخرى: لا شك أنّ القرآن الكريم تحدّى الجميع على الإتيان بمثله أو بسورة أو سور منه بشكل صريح، فإذا لم يكن سر إعجازه لغوياً فأين يكمن إذن؟

يُنتظر من الوجه الصحيح للإعجاز أن يكون وجهاً مشفوعاً بشهادة القرآن قبل أي شهادة أخرى؛ لأنه الأولى بتعريف حقيقة إعجازه، وجهاً تشهد له سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند بداية دعوته الإلهية المباركة أيضاً، فالقرآن تحدّى العرب وغيرهم عند نزوله ولا زال تحديه للعرب وغيرهم قائماً وسيبقى كذلك حتى يوم الإنسانية الأخير.

الوجه الصحيح أو القول الفصل في إعجاز القرآن الكريم كشف عنه السيد أحمد الحسن وأوضحه في أجوبته على بعض الأسئلة التي وجّهت إليه والحوارات التي دارت معه، وقد أفردتُ لها ملحقاً خاصاً بها في نهاية البحث.

ولكي ننتهي إلى النتيجة المرجوّة من هذا البحث بصورة واضحة وجليّة، قمت بتقسيمه إلى عشرة مباحث:

١- مسائل في الإعجاز.
٢- وجوه الإعجاز بنظر العلماء.
٣- مناقشة العلماء لوجوه الإعجاز.
٤- وقفة مع الفصاحة وضابطها.
٥- مناقشة الإعجاز اللفظي للقرآن.
٦- اللغة نتاج تطوري.
٧- لغة القرآن والعوالم العلوية.
٨- حقيقة القرآن والكتب المقدسة.
٩- القرآن وخلافة محمد (صلى الله عليه وآله).
١٠- القول الفصل في إعجاز القرآن.

أسأل الله أن ينفع به طلاب الحقيقة، والحمد لله رب العالمين.

علاء السالم
٧/ ٤/ ٢٠٢١ م
النجف الأشرف

١. مسائل في الإعجاز:

١.١- معنى الإعجاز وغرضه:

فسّر كثير من العلماء الإعجاز الموصوف به القرآن الكريم بـ (خرق العادة ونواميس الطبيعة) [١]. وهذا يعني أنّ الإعجاز الذي يتصف به القرآن الكريم عندهم لا يختلف معناه عن سائر المعجزات الأخرى التي أتى بها النبي (صلى الله عليه وآله) أو غيره من خلفاء الله؛ لأنّ "خرق العادة" موجود فيها جميعاً. نعم، بحسب بعضهم أنّ إعجاز القرآن أقوى من جهة بقائه واستمراره بالتواتر الذي لا يتصور فيه الانقطاع بمرور الزمان بخلاف سائر المعاجز الأخرى.

قال السيد الخوئي: (وقد ذكرنا امتياز القرآن عن غيره من المعجزات، بأن التواتر قد ينقطع في مرور الزمان. وأما القرآن فهو معجزة باقية أبدية ببقاء الأمة العربية، بل ببقاء من يعرف خصائص اللغة العربية، وإن لم يكن عربياً) [٢].

لم تتفق كلمة العلماء في بعض تفاصيل المعجز عموماً (ومنه إعجاز القرآن)، مثل: هل يشترط في المعجز أن يدرك الجميع إعجازه؟

يرى بعضهم - كالسيد الخوئي - كفاية إدراك جماعة خاصة له ويثبت لغيرهم بالنقل المتواتر؛ وإلا لم يسلم لنا معجز أصلاً على حدّ قوله [٣]. في حين يظهر من آخرين - كالشيخ المظفر - أنه يشترط أن تكون المعجزة ظاهرة الإعجاز بين الناس عموماً بحيث يعجز عنها الجميع؛ العلماء فضلاً عن غيرهم من سائر الناس [٤].

---

١. منهم: الخوئي في البيان في تفسير القرآن: ٣٣، والطباطبائي في تفسير الميزان: ١ / ٧٣، والسيوطي في الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٣١١، وأضاف إلى خرق العادة أمرين آخرين هما: "مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة".

٢. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٨٢.

٣. انظر: المصدر السابق.

٤. انظر: المظفر، عقائد الإمامية: ٥٢.

وأما الغرض من إعجاز القرآن:

فلما كان أكثر علماء المسلمين يرون أنّ الدليل على صدق دعوى النبوة تكون من خلال إقامة المعجز، يكون غرض إعجاز القرآن - والحال هذه - إثبات صدق الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) في دعواه. هذا ما يراه المتتبع في كتبهم بشكل واضح.

يقول السيد الخوئي: (قد عرفت أن طريق التصديق بالنبوة والإيمان بها، ينحصر بالمعجز الذي يقيمه النبي شاهداً لدعواه. .... وإذ قد عرفت أن القرآن معجزة إلهية، في بلاغته وأسلوبه فاعلم أن إعجازه لا ينحصر في ذلك، بل هو معجزة ربانية، وبرهان صدق على نبوة من أنزل إليه من جهات شتى) [١].

كون القرآن الكريم أحد أدلة صدق النبي في دعواه لا إشكال فيه [٢]، لكن حصر الدليل بالمعجز غير صحيح؛ لأنه خلاف ما أكدته النصوص [٣] وما ذهب إليه علماء الشيعة الأوائل من انحصار الدليل بالنص أو لا أقل اعتباره الأصل والأساس في معرفة الحجة الإلهي عموماً [٤].

ثم هل ستبقى قيمة تُذكر للنصوص الواردة في الكتب السابقة وبشاراتها برسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) والتي ثبت تاريخياً [٥] الاحتجاج بها لإثبات صدق دعواه إن كان طريق التعرّف عليه ينحصر بالمعجز فقط؟!! وسيأتي بيان الطريق الصحيح لإثبات خلافته الإلهية وصدقه في دعواه.

---

١. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٣، ٤٥.

٢. لكن لا من الجهة التي هم صوّروها، و إنما من جهة أخرى يأتي بيانها لاحقاً.

٣. وهي كثيرة، منها: (ن الحسن بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون يوما وعنده علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة فسأله بعضهم فقال له: يا بن رسول الله بأي شئ تصح الإمامة لمدعيها؟ قال بالنص والدليل، قال له: فدلالة الإمام فيما هي؟ قال: في العلم واستجابة الدعوة) الصدوق، عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٢ / ٢١٦.

٤. قال الشيخ المفيد: (فأما السمة للمذهب بالإمامة ووصف الفريق من الشيعة بالامامية فهو علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان، وأوجب النص الجلي والعصمة والكمال لكل إمام) أوائل المقالات: ٣٨.

٥. راجع على سبيل المثال: احتجاج الإمام الرضا (عليه السلام) في إثبات أحقية رسول الله (صلى الله عليه وآله) على علماء النصارى بالنصوص الواردة في الكتب السابقة. انظر: ابن حمزة الطوسي، الثاقب في المناقب: ١٩٠.

والخلاصة: إنّ القارئ لكلام العلماء يرى أنّ أغلبهم يُجرون إعجاز القرآن وسائر المعاجز المادية الأخرى التي أتى بها النبي (صلى الله عليه وآله) أو غيره من خلفاء الله في وادٍ واحد، لذا تجدهم يذكرون عصا موسى و إبراء عيسى للمرضى ونحوها عند حديثهم عن إعجاز القرآن الكريم. فبحسبهم، لما كان المشتهر بين العرب في زمن نزوله الفصاحة والبلاغة تحداهم بها كما تحدى موسى (عليه السلام) بعصاه السحر المنتشر في زمنه وتحدى عيسى (عليه السلام) الطب المنتشر في زمنه، وسيأتي مزيد من الكلام في هذه النقطة في الفقرة (٩) من البحث.

١.٢- هل يضرُّ الجهل بوجه الإعجاز؟

اختلف علماء المسلمين في أنّ الجهل بوجه الإعجاز الذي اتّصف به القرآن الكريم وتحديد صفته هل يضر، أم لا؟

يرى الشيخ الطوسي أننا يكفينا أن نعلم أنّ القرآن معجز ولا (يضرنا أن لا نعلم من أي جهة كان معجزاً، لأنا إذا علمناه معجزاً خارقاً للعادة علمنا ثبوته ولو شككنا في جهة إعجازه لم يضرّنا ذلك) [١].

في حين يرى علماء آخرون أنّ التحدي لا يصح ويبطل إعجاز القرآن من أساسه إن لم يُعرف الوجه في ذلك بنحو يتحدد الوصف المعجوز عنه [٢].

يقول الزركشي: (فإذا ثبت ذلك فاعلم أنه لا يصح التحدي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدي) [٣].

هذا، وقد ذهب بعضهم إلى أنّ أحد وجوه الإعجاز هو أنه يُدرك ولكن لا يمكن وصفه والتعبير عنه على حد قول الزركشي في أحد وجوه الإعجاز، مستشهداً بقول

---

١. الطوسي، الاقتصاد: ١٧٢.
٢. انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٣٨٥.
٣. الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٩٣.

السكاكي: (واعلم أن شأن الإعجاز [عجيب] يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة) [١].

بل ذهب بعضهم إلى عدم إمكانية إدراك الإعجاز أصلاً، إذ نقل المجلسي في بحاره قول النيسابوري في تفسيره: (واعلم أن شأن الإعجاز لا يدرك ولا يمكن وصفه) [٢].

مقابل ذلك، يجزم السيد المرتضى أنّ صفة الإعجاز معلومة في القرآن الكريم بنحو قطعي يمنع من طروّ الاحتمال والتنازع، يقول: (... لأن المعجز معلوم وجوده ضرورة وهو القرآن، ومعلوم صفته في الإعجاز بطريق عقلي لا يمكن دخول الاحتمال فيه والتجاذب والتنازع) [٣]. وسنتعرف على الوجه الذي اختاره لإعجاز القرآن لاحقاً، والملفت أنه وجه رفضته الغالبية العظمى من علماء المسلمين.

١.٣- القدر المعجز من القرآن:

- أولاً: لما يقال: إنّ القرآن معجز، فهل كلّه معجز، أم أنّ المعجز هو سوره دون آحاد آياته، أم ماذا؟

لم تتفق كلمة العلماء في إجابة هذا السؤال، وهذه جملة من أقوالهم [٤]:

١- المعجز هو كل سورة برأسها.
٢- المعجز هو السورة طويلة كانت أم قصيرة، وكذلك الآيات التي لها قدر السورة القصيرة.
٣- المعجز هو السورة أو قدرها من الكلام الذي يتبيّن فيه تفاضل قوى البلاغة ورتبها، وليس مطلق الكلام.
٤- المعجز مطلق القرآن قليله وكثيره، سوره و آياته.

---

١. الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١ / ٣١١.
٢. المجلسي، بحار الأنوار: ١٧ / ١٦٥.
٣. المرتضى، المقنع في الغيبة: ٤٨.
٤. انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن: ٢٨٦؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٠٧؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٣٢٤؛ البهوتي، كشف القناع: ١ / ٤٠٨؛ جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء: ٣ / ٤٥٠.

٥- بعض الآية ليس بمعجز مطلقاً.
٦- في بعض الآية إعجاز.
٧- المعجز هو السور الطوال، والقصار إذا اشتملت على الحكم الظاهرة.

قال الشيخ الطوسي: (أقل ما يقع به الإعجاز ثلاث آيات مثل سورة قصيرة) [١]. وتابعه عليه غيره من علماء الشيعة.

بناء على هذا القول، لا تكون الآية والآيتان داخلتان في الإعجاز، أي ممكن الإتيان بمثل الآية والآيتين!

وسبب هذا الاختلاف، يمكن أن يُعزى لأمرين:

- فهم آيات التحدي في القرآن وتفسيرهم لها.
- البلاغة وتحديداً مقدار الكلام الذي يتوضح به المعجز منها.

كلا هذين الأمرين ساهما في تعدد الآراء وذهابها باتجاهات مختلفة؛ خصوصاً وأنّ البلاغة - بنظر أغلبهم - رأس السهم الذي يرمي به قوس الإعجاز.

فمن اختار القرآن كله معجز، رأى أنّ من بين آيات التحدي في القرآن التحدي بحديث مثله: "فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ" [الطور: ٣٤]، وهو شامل - بحسب هؤلاء العلماء - للسور والآيات.

ومن اختار الإعجاز بثلاث آيات (وهو عدد آيات سورة الكوثر، أصغر سور القرآن) فهم ذلك من التحدي بسورة: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [البقرة: ٢٣].

لكن السور القصار فضلاً عن آحاد الآيات - بنظر آخرين - لا يمكن لها أن تحقق البلاغة المعجزة (وجه الإعجاز بنظرهم) فاشترطوا توفر أمور أخرى كالحِكَم مثلاً، أو أن تكون الآيات بقدر من الكلام الذي تكون البلاغة والفصاحة فيه واضحة.

---

١. الطوسي، المبسوط: ٤ / ٢٧٤.

- وثانياً: لما يقال: إنّ القرآن معجز، فهل الإعجاز يشمل كل كلماته، بمعنى أنّ كل كلمة فيه تكون داخلة في الإعجاز؟ انقسموا على قولين:

بعضهم لا يرى ذلك، منهم: السيد الخوئي، يقول: (إن القرآن معجزة في بلاغته وأسلوبه، لا في كل كلمة من كلماته) [١].

وبعضهم - كالباقلاني - يرى أنّ كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا من الفصاحة والإعجاز، يقول السيوطي: (اختار القاضي أن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا وإن كان بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض. واختار أبو نصر القشيري وغيره التفاوت فقال لا ندعي أن كل ما في القرآن أرفع الدرجات في الفصاحة وكذا قال غيره في القرآن الأفصح والفصيح وإلى هذا نحا الشيخ عز الدين بن عبد السلام) [٢].

٤.١- هل القرآن معجز للإنس فقط؟

من المسائل التي اختلفوا فيها أيضاً: هل أنّ القرآن معجز بالنسبة إلى الإنس فقط، أم هو معجز لهم وللجن وغيرهم؟

ذهب بعضهم [٣] إلى أنه معجز للإنس فقط، فالتحدي وقع بالنسبة لهم، وأما الجن فليسوا من أهل اللسان العربي ليعجزهم، وأما قوله تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ..." فهي لأجل التعظيم لإعجازه ليس إلا.

وذهب آخرون - منهم الطباطبائي - إلى أنّ القرآن معجز للإنس والجن والملائكة أيضاً؛ لعموم التحدي في الآيات، (ولكان من الواجب أن يقال: "لئن اجتمعت العرب وادعوا من استطعتم من آلهتكم ومن أهل لغتكم) [٤].

وسيأتي في الفقرة (٩) من البحث استعراض آيات التحدي.

١. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٩٢.
٢. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٢٣٥.
٣. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١١١؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٣٢٦.
٤. الطباطبائي، تفسير الميزان: ١٠ / ١٦٣.

٥.١- هل القرآن معجز لعموم الناس أو العرب فقط؟

عرفنا قبل قليل رأي السيد الطباطبائي في إعجاز القرآن وشموله لعموم الإنس (عربيهم وغير عربيهم)، بل ولعموم الجن والملائكة، لكن استقر رأي أكثر العلماء على أنّ الإعجاز إنما يتحقق لطائفة خاصة من أهل اللسان العربي، والسبب أنهم يرون أنّ عمدة وجوه الإعجاز هي الفصاحة والبلاغة، وهي لا تتحصل إلا لبعض الناس من العرب وهم البلغاء أو غير العرب العارفين ببلاغة وفصاحة اللغة العربية، أما غير العارف بالعربية فهو لا يعجز فقط عن الإتيان بمثل فصاحة القرآن ولكن يعجز أيضاً عن الإتيان بشعر امرئ القيس وزهير وغيرهم.

يقول عضد الدين الايجي: (ومن كان أعرف بالعربية وفنون بلاغتها كان أعرف بإعجاز القرآن) [١].

بناءً على هذا، يُطرح السؤال التالي: ألا يلزم من حصر الإعجاز بالعارفين بالعربية وفنون بلاغتها أن لا يكون القرآن معجزاً وحجة على معرفة من جاء به بالنسبة إلى غير العربي كالفارسي والهندي والتركي وغيرهم، والحال أنّ الجميع مكلّف بتصديق صاحب المعجز في دعوته؟

أجاب السيد الخوئي بأنّ (المعجز لا يشترط فيه أن يدرك إعجازه كل البشر، ولو اشترطنا ذلك لم يسلم لنا معجز أصلاً، فإن إدراكه يختص بجماعة خاصة، ويثبت لغيرهم بالنقل المتواتر) [٢].

وقال الباقلاني: (فإن قالوا: كيف لزمت حجة القرآن الهند والترك وهم لا يعرفون أن ما أتى به معجز؟ قيل لهم: من حيث إنهم إذا فتشوا علموا أن العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أفصح الناس و أقدرهم على نظم الكلام العربي وأنهم النهاية في هذا الباب وأنهم مع ذلك أحرص الناس على تكذيبه صلى الله عليه وسلم و أنه نشأ معهم وأنهم يعرفون دخيلته وأهل مجالسته في ظعنه و إقامته و أنه ما كان يتلو من

---

١. الإيجي، المواقف: ٣/ ٣٧٧.

٢. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٨٢.

قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه و أنه مع ذلك كله أجمع تحداهم بمثله أو بسورة من مثله مجتمعين أو مفترقين فعجزوا عن ذلك أجمع كما أن حجة موسى وعيسى عليهما السلام قائمة على من ليس بساحر ولا طبيب لعلمه بأنهما تحديا أطب الناس وأعظمهم سحراً بمثل ما أتيا به فعجزوا عن ذلك مع الحرص على تكذيبهما والإتيان بمثل ما أتيا به) [١].
وبمثلهم أجاب السيوطي في الإتقان [٢].

لكن كلامهم هذا قد يكون له وجه فيما لو كان القرآن الكريم كتاب لغة وبلاغة كسائر كتب البلاغة واللغة عموماً، فيكون موجّه من الأساس لطبقة معينة من القرّاء وليس لسائر الناس الذين قد لا تعنيهم علوم اللغة والبلاغة شيئاً أصلاً، وليس حال القرآن الكريم كذلك وحاشاه، فهو كتاب هداية لجميع المكلفين ولا غنى لأحد منهم عنه وعن التدبّر فيه من أجل الرقي والكمال المطلوب من الجميع على حد سواء.

أضف إليه: إنّ حصر جهة إعجاز القرآن وحجيته بطائفة خاصة من الناس معناه تمييز قوم على قوم ابتداءً دون وجه استحقاق، وهذا - بكل تأكيد - يؤدي إلى الطعن بعدالة الله؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وسيأتي حسم المسألة عند بيان القول الفصل في وجه الإعجاز.

٦.١- هل تؤثر الترجمة على إعجاز القرآن؟

إذا اتضح ما تقدم، فليس أمراً مفاجئاً أن نعرف تأثير الترجمة على إعجاز القرآن الكريم وسلبها له بحسب الرأي السائد بين علماء المسلمين.

فبحسبهم، لا إعجاز في الترجمة وإن كانت صحيحة؛ لأن الإعجاز عند جمهور العلماء لفظي من جهة الفصاحة أو بانضمام النظم والأسلوب لها (كما سيتضح)، وهي - أي الترجمة - تؤثر على هذه الجهة، لهذا فهم جميعاً لم يجوّزوا القراءة بغير العربية في الصلاة، وكان أحد وجوه المنع عندهم أنّ الترجمة والمعنى ليس بقرآن أصلاً، ومن ثم تبطل الصلاة من هذه الجهة.

١. الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: ١٨١.
٢. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٦.

قال الزركشي: (واستقر الإجماع على أنه تجب قراءته على هيئته التي يتعلق بها الإعجاز لنقص الترجمة عنه، ولنقص غيره من الألسن عن البيان الذي اختص به دون سائر الألسنة، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربي لمكان التحدي بنظمه. فأحرى أن لا تجوز الترجمة بلسان غيره، ...) [١].

قال البهوتي: (قال أحمد: القرآن معجز بنفسه، أي بخلاف ترجمته بلغة أخرى. فإنه لا إعجاز فيها) [٢].

وقال العلامة الحلي في مسألة بطلان الصلاة بالقراءة بغير العربية: (... ولأنه معجز بلفظه ونظمه فلو كان معناه قرآناً لم يتحقق الإعجاز) [٣].

وليست الترجمة - بنظرهم - تسلب إعجاز القرآن فقط، ولكن بعضهم ذهب إلى عدم إمكانها أصلاً فلا أحد يقدر على نقل القرآن لغير العربية حتى مع سلب الإعجاز!

أكمل الزركشي كلامه المتقدم فقال: (ومن هاهنا قال القفال من أصحابنا: عندي أنه لا يقدر أحد أن يأتي بالقرآن بالفارسية. ..... وما أحاله القفال من ترجمة القرآن ذكره أبو الحسين بن فارس في فقه العربية أيضا فقال: "لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقل القرآن إلى شيء من الألسن، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية؛ لأن العجم لم تتسع في الكلام اتساع العرب ...") [٤].

وبهذا - بحسب هذا الرأي المتعصب - ينسد الباب على غير العربي تماماً، فلا هو يدرك الوجه اللفظي لإعجاز القرآن، ولا هو قادر على ترجمته ونقله لغير العربية ليدرك المعنى لا أقل!

---

١. الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤٦٥.
٢. البهوتي، كشف القناع: ١/ ٤٠٨.
٣. العلامة الحلي، تذكرة الفقهاء: ٣/ ١٣٥.
٤. الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤٦٥.

٧.١- هل الإعجاز في اللفظ أو المعنى؟

اختلف العلماء أيضاً في أنّ الإعجاز الذي يتصف به القرآن الكريم هل هو أمر راجع إلى لفظه أو معناه أو الاثنين معاً؟

١- فمنهم من أرجع الإعجاز إلى اللفظ، وهم الأكثر[١].
٢- ومنهم من أرجعه إلى المعنى [٢].
٣- وثالث أرجعه إلى اللفظ والمعنى [٣].
٤- ورابع أرجعه إلى اللفظ والمعنى والنظم [٤].
٥- وخامس أرجعه إلى اللفظ بانضمام النظم إليه وليس المجرّد منه [٥].

من المفيد أن نشير إلى أنّ واحدة من أسباب هذا الاختلاف تعود إلى تفسيرهم معنى البلاغة والفصاحة. فلما كان الجرجاني يرى أنّها تكون في المعنى دون اللفظ - كما سيأتي - شنّع على القائلين برجوع الإعجاز إلى لفظ القرآن، قال: (ليس لمن حام في حديث المزية والإعجاز حول "اللفظ"، ورام أن يجعله السبب في هذه الفضيلة، إلا التسكع في الحيرة والخروج عن فاسد من القول إلى مثله) [٦].

ومثله الطباطبائي في تفسيره، إذ يرى أنّ (أمر البلاغة المعجزة لا يدور مدار اللفظ ...... بل المدار هو المعنى المحافظ لجميع جهات الذهن والخارج) [٧].

---

١. انظر: النووي، المجموع: ٣ / ٣٨٠؛ الغزالي، المنخول: ٧٢؛ الآمدي، الإحكام: ٢ / ١٠٥.
٢. منهم: الجرجاني في "دلائل الإعجاز"، وقد أشار لذلك في مواضع عديدة منه؛ و أيضاً نقله الجصاص في أحكام القرآن: ٣ / ٢٧٠؛ واختاره السرخسي في أصوله: ١ / ٢٨٢.
٣. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: / ٩٦؛ الهوتي، كشف القناع: ١ / ٤٠٨؛ محمد باقر الصدر، المعالم الجديدة للأصول: ٣٢.
٤. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٧٤.
٥. انظر: العلامة الحلي، تذكرة الفقهاء: ٣ / ١٣٥.
٦. الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٦٢.
٧. الطباطبائي، تفسير الميزان: ١ / ٧٣.

في حين ذكر الرازي: (أن القرآن العربي كما أنه يطلب قراءة لمعناه كذلك تطلب قراءته لأجل لفظه، وذلك من وجهين: الأول: إن الإعجاز في فصاحته؛ وفصاحته في لفظه ...) [١].

ولما يقال برجوع الإعجاز إلى اللفظ، فهل المقصود بذلك الحروف التي تتألف منها الألفاظ، أم نظمها ورصفها؟

يظهر من السيد الخوئي أنه يرى الإعجاز في الحروف وإن ضم "البيان" إليها؛ إذ يقول عن عجز المعاندين: (فاختاروا المقابلة بالسيوف على المقاومة بالحروف، و آثروا المبارزة بالسنان على المعارضة في البيان) [٢].

بينما يرى الباقلاني: (ليس الإعجاز في نفس الحروف و إنما هو في نظمها وإحكام رصفها وكونها على وزن ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم) [٣].

هذا، وقد جعل الجرجاني القول بالإعجاز في "سهولة الحروف وجريانها" كافياً للدلالة على عدم التوفيق وشدة الضلال عن الطريق [٤].

ونفس الأمر يأتي بالنسبة لمن اختار رجوع الإعجاز إلى المعنى، فالمقصود بنظره هو "نظم" المعاني وليس الإعجاز في المعاني نفسها [٥].

---

١. الرازي، تفسير الفخر الرازي: ١ / ٢١٧.

٢. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤١.

٣. الباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: ١٧٧.

٤. انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٤٧٦.

٥. انظر: المصدر السابق: ٥٥، ٤١٥.

٢. وجوه الإعجاز بنظر العلماء:

ذكر علماء المسلمين في كتبهم عدة وجوه للإعجاز، وكلماتهم تفاوتت بشكل كبير، فهم بين من أوصلها إلى ستة عشر وجهاً، وبين من اكتفى بوجه واحد، وبين هذا وذاك تعدّدت الآراء وتنوّعت الوجوه قلة وكثرة و إفراداً وجمعاً كما سنرى.

وقبل استعراض الأقوال يحسن بنا أن نتعرّف على معنى بعض ما يرد فيها من جهة ارتباطه ببحثنا.

٢.١- معاني بعض الوجوه:

- الصرفة: أي إنّ الله سبحانه بقدرته صرف وسلب همم الخلق عن معارضة القرآن والإتيان بمثله.

- إما بأن سلبهم معارضته مع قدرتهم على المعارضة والإتيان بمثله، وهو قول النظّام وجماعته من أهل الاعتزال. وبه قال المفيد في "أوائل المقالات" [١].
- أو بأن سلبهم القدرة على الإتيان بمثله (من جهة الفصاحة) من الأساس بحيث تعذّرت المعارضة عليهم، وهو قول السيد المرتضى [٢].

- النظم والتأليف والرصف متقاربة المعنى عند أكثرهم [٣] ويراد بها: الترتيب وضم الشيء بعضه إلى بعض [٤]. ويظهر من بعضهم [٥] أنّ النظم والأسلوب شيء واحد.

---

١. المفيد، أوائل المقالات: ٦٣.
٢. المرتضى، رسائل الشريف المرتضى: ٢ / ٣٢٤.
٣. انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن: ٣٧؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٩٨؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٥.
٤. انظر: ابن ميتم البحراني: شرح نهج البلاغة: ١ / ٤٧.
٥. كالشيخ الطوسي، انظر: الاقتصاد: ١٨٠.

- لذا عرّفه الإيجي فقال: (النظم أي التأليف الغريب والأسلوب العجيب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعه أي أوائل السور والقصص وغيرها ومقاطعه أي أواخرها وفواصله أي آخر الآي التي هي بزنة الإسجاع في كلامهم) [١].
- وقال ابن يعقوب المغربي: (نظم القرآن: أسلوبه الخاص المقتضي لتناسب دلالة كلمه إفراداً وتركيباً) [٢].
- وعرّفه الشهيد الثاني بـ (تأليف كلماته مترتّبة المعاني متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل) [٣].
- لكن الجرجاني عرّفه بـ (توخّي قواعد النحو وأحكامه فيما بين الكلم) [٤].

- الأسلوب: الفن والطريقة [٥]، فأسلوب القرآن وطريقته في الكلام مخالفة لأساليب العرب وطرقهم في كلامهم كالشعر والنثر والخطابة وما شابه.

- الجزالة: القوة والعظمة والجودة (بخلاف الركاكة) [٦]. ومن تتبع كلماتهم يجد أنهم يصفون بها لفظ القرآن تارة، ويصفون بها معناه أخرى، ويصفون بها نظمه ثالثة، ويصفون بها أسلوبه رابعة.

وأما الفصاحة والبلاغة فسيأتي بحثها وبيان معناها منفرداً؛ لأهميتها بعد كونها (منفردة أو منضمة لوجوه أخرى) عمدة وجوه إعجاز القرآن بنظر أغلبهم.

---

١. الإيجي، المواقف: ٣ / ٣٩٠.
٢. المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ١ / ١٠٠.
٣. الشهيد الثاني، المقاصد العلية في شرح الرسالة الألفية: ٢٤٧.
٤. الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٣٩١ – ٣٩٢.
٥. انظر: الشريف الجرجاني، الحاشية على الكشاف: ١٤٩.
٦. انظر: ابن منظور، لسان العرب: ١١ / ١٠٩.

٢.٢- وجوه الإعجاز عند العلماء:

١- الإعجاز في الصرفة:

ذهب إلى هذا القول: النظّام وأصحابه من المعتزلة، والمرتضى والمفيد في أحد أقواله كما تقدم، و أيضاً: اختاره أبو الصلاح الحلبي في "تقريب المعارف" [١]. واستصوبه المحقق الحلي في "المسلك في أصول الدين"، قال: (واعلم أن الناس اختلفوا في وجه الإعجاز، فقال قوم: هو الفصاحة. وقال آخرون: هو الأسلوب. وآخرون: هو مجموع الأمرين. وآخرون: هو سلامته من الاختلاف. واختار المرتضى الصرفة. وذكر أن العرب قادرة على مثل فصاحته وأسلوبه، غير أن الله تعالى صرفهم عن ذلك. ولعل هذا الوجه أشبه بالصواب) [٢].

٢- الإعجاز في النظم فقط:

اختاره الجرجاني في "دلائل الإعجاز" بعد أن أبطل أن يكون إعجاز القرآن في:

أ- كلمه المفردة.
ب- معاني الكلم المفردة.
ج- ترتيب الحركات والسكنات.
د- المقاطع والفواصل في القرآن.
هـ- عدم التقاء حروفه بنحو يوجب ثقل اللسان.
و- الصرفة.

بل واعتبر الأمور المذكورة مجرد شناعات تلزم القائلين بها، قال: (ونعود إلى النسق فنقول: فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه، لم يبق إلا أن يكون في "النظم" ...) [٣].

---

١. أبو الصلاح الحلبي، تقريب المعارف: ١٥٧.
٢. المحقق الحلي، المسلك في أصول الدين: ١٨١ - ١٨٢.
٣. الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٣٨٥ - ٣٩١.

علماً أنّ "النظم" بنظره ليس أكثر من "توخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم"، كما تقدم. و أيضاً: هو يرى أنّ النظم يكون للمعاني لا الألفاظ [١].

وممّن اختار الإعجاز بالنظم: الشيخ الأنصاري [٢]، والشهيد الأول [٣].

وأما الزمخشري، فهو وإن وصف النظم بـ "أم إعجاز القرآن" في موضع من تفسيره، لكنه في موضع سابق منه أضاف له البلاغة [٤].

٣- الإعجاز في اختصاصه بالفصاحة المفرطة والنظم معاً:

اختاره الشيخ الطوسي، قال بعد ذكر بعض الوجوه: (و أقوى الأقوال عندي قول من قال إنما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص دون الفصاحة بانفرادها ودون النظم بانفراده ودون الصرفة) [٥]،

وممّن اختار الإعجاز في النظم والفصاحة مجتمعين: المجلسي في بحاره [٦]. والطبرسي في تفسيره [٧]. بينما ذهب الراوندي إلى أنّ التحدي بالفصاحة دون النظم أمر ممكن وليس بممتنع [٨].

٤- الإعجاز في بلاغته أو فصاحته فقط:

اختاره الإيجي، فهو بعد أن ذكر ستة وجوه للإعجاز، هي: (١. النظم الغريب. ٢. البلاغة العالية. ٣. مجموع الأمرين (أي: النظم والبلاغة). ٤. الإخبار عن الغيب. ٥. عدم الاختلاف والتناقض. ٦. الصرفة)، قال: (هذا و إنا نختار أنه معجز ببلاغته) [٩].

---

١. المصدر السابق: ٤١٥.
٢. مرتضى الأنصاري، كتاب الصلاة: ١ / ٣٦٩.
٣. الشهيد الأول، ذكرى الشيعة: ٣ / ٣٠٤.
٤. الزمخشري، الكشاف: ٢/ شرح ص٢٣٦، ٥٣٦.
٥. الطوسي، الاقتصاد: ١٧٣.
٦. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ٩ / ١٠٤.
٧. انظر: الطبرسي، مجمع البيان: ٥ / ٢٥٠.
٨. انظر: الراوندي، الخرائج والجرائح: ٣ / ١٠٠٠.
٩. الإيجي، المواقف: ٣ / ٣٨١.

وأما الرازي، فقد نقل ستة وجوه بنحو آخر، هي: (١. الفصاحة. ٢. الأسلوب. ٣. عدم التناقض. ٤. اشتماله على العلوم الكثيرة. ٥. الصرف. ٦. اشتماله على الإخبار بالغيب)، ثم قال: (والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة) [١].

٥- الإعجاز في فصاحته أو أسلوبه أو الاثنان معاً:

نقل هذه الوجوه السيد البروجردي في تفسيره، حيث ذكر ثلاثة أقوال كوجوه للإعجاز هي: (١. الفصاحة. ٢. الأسلوب. ٣. الفصاحة والأسلوب معاً) [٢].

وممّن ذكر "الأسلوب" أيضاً كوجه من وجوه الإعجاز السيد محمد الصدر، قال: (الوجه الثالث: إن هذا الأسلوب القرآني من البيان إنما هو لبيان الإعجاز، بشكل لا يشبهه أي أسلوب آخر) [٣].

٦- الإعجاز في جزالته وأسلوبه معاً:

اختاره النووي، قال: (والمختار أن الإعجاز في جزالته مع أسلوبه الخارج عن أساليب كلام العرب والجزالة والأسلوب يتعلقان بالألفاظ) [٤].

٧- الإعجاز في حسن النظم والإخبار عمّا كان وما يكون:

اختاره مجموعة من المفسرين منهم: الواحدي والسمعاني والنسفي والأندلسي [٥].

٨- الإعجاز في فصاحته الخارقة و إتيانه من النبي الأمّي:

اختاره السبكي، قال: (وذلك أن الإعجاز من جهتين إحداهما: من فصاحة القرآن وبلاغته وبلوغه مبلغاً تقصر قوى الخلق عنه وهو المقصود في السور الثلاث المتقدمة

١. الرازي، تفسير الفخر الرازي: ١٧ / ٢٠٣.
٢. انظر: البروجردي، تفسير الصراط المستقيم: ٢ / ٢٤٥.
٣. محمد الصدر، ما وراء الفقه: ١ / ٢٩٦.
٤. النووي، المجموع: ٣ / ٣٧٧ - ٣٧٨، ٣٨٠.
٥. الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١ / ٩٦؛ السمعاني، تفسير السمعاني: ٤ / ١٨٧؛ النسفي، تفسير النسفي: ٢ / ١٢٩؛ ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز: / ١٠٦

المتحدي به فيها، والثانية: إتيانه من النبي صلى الله عليه وسلم الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب وهو المقصود المتحدى به في هذه السورة ولا تمتنع إرادة المجموع كما قدمناه) [١].

٩- الإعجاز في المجموع من ثلاثة وجوه، هي: (١. بديع نظمه وتأليفه وبلاغته. ٢. إخباره عن الغيوب. ٣. سرده لقصص الأولين مع أنّ محمداً (صلى الله عليه وآله) أمّي لا يقرأ ولا يكتب). اختاره القاضي الباقلاني [٢].

١٠- الإعجاز في المجموع من ثلاثة وجوه بنحو آخر، هي: (١. الفصاحة البالغة. ٢. الأسلوب. ٣. الاشتمال على العلوم الشريفة). اختاره ابن ميثم البحراني في "قواعد المرام" [٣].

١١- الإعجاز في سبعة وجوه منفردة، هي: (١. بلاغة القرآن وأسلوبه. ٢. المعارف التي تضمنها. ٣. النظام والتشريع. ٤. استقامة البيان. ٥. إتقان المعاني. ٦. الإخبار بالغيب. ٧. أسرار الخليقة). اختاره السيد الخوئي في تفسيره، قال: (وإذ قد عرفت أن القرآن معجزة إلهية، في بلاغته وأسلوبه فاعلم أن إعجازه لا ينحصر في ذلك، بل هو معجزة ربانية، وبرهان صدق على نبوة من انزل إليه من جهات شتى ...) [٤]. ثم ذكر الوجوه الأخرى.

١٢- الإعجاز في المجموع من سبعة وجوه، هي: (١. صرف الخلق عن معارضته. ٢. الفصاحة الخارقة. ٣. صحة معانيه وموافقتها للعقل. ٤. زوال الاختلال والتناقض. ٥. الإخبار عن الغيوب. ٦. اختصاصه بنظم مخصوص. ٧. استحالة وقوعه من الخلق). اختاره الراوندي، قال بعد ذكرها: (ولو قلنا: إن هذه الوجوه السبعة كلها هو وجه إعجاز القرآن على وجه دون وجه لكان حسناً). ولكنه انتخب في النهاية "الفصاحة" وجهاً فريداً للإعجاز [٥].

---

١. السبكي، فتاوى السبكي: ١ / ١٧.
٢. الباقلاني، إعجاز القرآن: ٣٣، فما بعد.
٣. ابن ميثم البحراني، قواعد المرام في علم الكلام: ١٣٣.
٤. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٥، فما بعد.
٥. الراوندي، الخرائج والجرائح: ٣ / ٩٨١ - ٩٨٢، ٩٨٤.

١٣- الإعجاز في عشرة وجوه، هي: (١. النظم. ٢. الأسلوب. ٣. الجزالة. ٤. التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي. ٥. الإخبار عن الأمور المتقدمة. ٦. الوفاء بالوعد. ٧. الإخبار عن المغيبات. ٨. ما تضمنه من علوم. ٩. الحكم البالغة. ١٠. التناسب في جميعه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف). اختاره القرطبي في تفسيره، ويرى أنّ الثلاثة الأُول (أي: النظم والأسلوب والجزالة) هي المتوفرة في كل آية وبها يقع التحدي [١].

١٤- إعجازه بستة عشر وجهاً، هي: (١. الصرف. ٢. التأليف الخاص. ٣. الإخبار عن الغيوب. ٤. إخباره عن قصص الأولين. ٥. إخباره عن الضمائر. ٦. نظمه وصحة معانيه وفصاحة ألفاظه. ٧. فصاحته وغرابة أسلوبه وسلامته من العيوب؛ كل ذلك مقترناً بالتحدي. ٨. النظم والتأليف والترصيف. ٩. لا شيء يمكن التعبير به عن وجه الإعجاز. ١٠. استمرار فصاحته وبلاغته. ١١. بلاغته فقط. ١٢. الإعجاز بجميع ما سبق على وجه المجموع لا الانفراد).

ذكرها الزركشي في "البرهان" [٢]، ثم أضاف أربعة وجوه أخرى، هي: (١- الروعة التي له في قلوب السامعين. ٢- إنه لم يزل ولا يزال غضاً طرياً. ٣- جمعه بين صفتي الجزالة (قوة اللفظ وفخامته) والعذوبة (كون اللفظ أشهى وأرق) وهما متضادتان. ٤- إنه آخر الكتب الغني عن غيره واحتياج الكتب المقدسة الأخرى إليه).

١٥- الإعجاز بجميع ما يمكن من صفات التفاضل:

ذهب إليه الطباطبائي في تفسيره، فبعد أن رفض حصر الإعجاز ببلاغة القرآن أو جزالة أسلوبه أو ما تضمنه من معارف حقيقية وأخلاق وأحكام وأخبار غيب وغير ذلك، اختار أن يكون وجه الإعجاز جميع ما يمكن فيه التفاضل في الصفات، قال: (فإطلاق التحدي على الثقلين ليس إلا في جميع ما يمكن فيه التفاضل في الصفات. فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه وللاجتماعي في

---

١. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١ / ٧٢ - ٧٥.

٢. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٩٤ - ١٠٧.

اجتماعه، وللمقنين في تقنينهم وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان) [١].

كانت هذه بعض أقوال علماء المسلمين في بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم، و أنت إذا تدبرتها وجدتها تزيد على (٣٠) وجهاً، وقصدت أن تكون مصنّفة بحسب مضامينها وعدد الوجوه المذكورة فيها ليسهل تمييزها، من جهة. كما أنها - من جهة ثانية - ضمّت أقوال العلماء بمختلف اتجاهاتهم العقدية والمعرفية من فقهاء وأصوليين ومتكلمين ومفسرين وبلاغيين. ومن جهة ثالثة: إنّ من يراجع كلام العلماء في كتبهم لن يجد دليلاً قطعياً محكماً سواء كان قرآنياً أو روائياً - ولا حتى دليل عقلي قطعي - في استدلالهم على ما اختاروه من وجوه. اللهم، إلا ما يتعلق بفهمهم الظني لآيات التحدي (المتشابهة عندهم) كما أشرنا له. فالمسألة إذن ظنية بالنسبة لهم ولذلك رأينا تعدد الآراء وتنوعها واختلافها بشكل كبير.

١. الطباطبائي، تفسير الميزان: ١ / ٥٩ - ٦٠.

٣. مناقشة العلماء لوجوه الإعجاز:

وجوه الإعجاز المتقدمة، لما لم تكن ثابتة بدليل قطعي محكم، لم يكد يخلو واحد منها ذكره عالم (أو أكثر) من مناقشة من قبل علماء آخرين، وسأذكر جملة من المناقشات التي وردت في كتبهم، مع ضرورة التنبّه لملاحظتين مهمّتين:

الأولى: إنّ كلَّ من ضمّ إلى الفصاحة أو النظم أو الأسلوب أو الجزالة (وغير ذلك من الوجوه) شيئاً آخر من وجوه الإعجاز التي تقدمت، وقال بإعجاز المجموع (المؤلف من وجهين أو ثلاثة أو أكثر) فهو بالضرورة يرى أنّ كلاً منها وحده غير كافٍ لتحقق الإعجاز في القرآن الكريم. وهذه ملاحظة سيّالة تسري في أغلب وجوه الإعجاز التي ذكروها.

الثانية: إنّ بحث الإعجاز منصبّ أساساً على بيان وجه الإعجاز الذي يتوفّر عليه القرآن في كل سوره وآياته لا بعضاً منه، ولذلك ناقش كثير من العلماء في كثير من الوجوه المتقدمة بحجة أنها لا تشمل إلا بعض آيات القرآن الكريم.

ا- مناقشة الصرفة:

نوقشت الصرفة من قبل أغلب العلماء، وذكروا وجوهاً عديدة لردها، منهم: السيد الخوئي [1]، إذ اعتبر القول بها في غاية الضعف؛ لأمرين:

الأول: إن كان معناها صرف قدرة البشر عن معارضة القرآن فهو أمر يجري في سائر المعجزات ولا يختص بالقرآن فقط، وإن كان معناها صرفهم عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على ذلك فهو واضح البطلان؛ لأن كثيراً منهم تصدّوا لمعارضته ولكنهم اعترفوا بعجزهم.

---

١. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٨٣.

والثاني: لو كان الإعجاز بالصرفة لوجد في كلام العرب السابقين مثله قبل التحدي، ولنقل وتواترولكن شيئاً من ذلك غير موجود.

و أيضاً ناقش الصرفة علماء آخرون، منهم: الزركشي [١]، والسيوطي [٢]، وغيرهم، بل بلغ الأمر أن اعتبر بعضهم القول بها نقصان في الفطرة الإنسانية [٣].

جدير بالذكر، أنّ القائلين بالصرفة ذهبوا لها لعدم سلامة وجوه الإعجاز الأخرى بنظرهم.

٢- مناقشة البلاغة أو الفصاحة فقط:

يرى بعض العلماء - منهم الطباطبائي - أنّ التحدي الذي أطلقه القرآن الكريم عام يشمل كل ما تضمّنه من معارف حقيقية وحجج وبراهين ساطعة ومواعظ حسنة وأخلاق كريمة وشرائع إلهية وأخبار غيبية وفصاحة وبلاغة ونحو ذلك. لذا رد القول بالإعجاز بالبلاغة فقط، وقال: (فإن فيه أولاً: أن لو كانت جهة الإعجاز في القرآن هي بلاغته فحسب وهي أمر لا يعرفه غير العرب لم يكن لتشريك غيرهم في التحدي معنى، ولم يرجع قوله: "وادعوا من استطعتم من دون الله" على ما فيه من العموم وكذا قوله: "لئن اجتمعت الإنس والجن" الآية إلى معنى محصل، ولكان من الواجب أن يقال: "لئن اجتمعت العرب" وادعوا من استطعتم من آلهتكم ومن أهل لغتكم) [٤].

وقد تقدّم قول المحقق الحلي (ونقله عن السيد المرتضى أيضاً) بأنّ العرب قادرة على مثل فصاحة القرآن وأسلوبه، وبمثلهما قال أبو الصلاح الحلبي و ابن ميثم البحراني والجويني (وسيأتي كلامهم)، ولذا لم يقبل الشيخ الطوسي انفراد الفصاحة بالإعجاز وضمّ إليها النظم، كما مرّ.

١. الزركشي، البرهان: ٢ / ٩٤.
٢. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٤.
٣. انظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط: ١ / ١١٠.
٤. الطباطبائي، تفسير الميزان: ١٠ / ١٦٣.

أضف إليه: إنّ جميع من ضمّ إلى "الفصاحة" وجوهاً أُخر هو بالحقيقة لا يراها وحدها كافية لتحقيق الإعجاز الذي وصف به القرآن الكريم.

٣- مناقشة النظم:

كما قلت: كل من ضمّ إلى النظم وجهاً آخر، كالشيخ الطوسي وآخرين فهو بكل تأكيد لا يرى النظم وحده معجزاً، قال: (فأما من قال: مجرد النظم هو المعجز. فقوله باطل، لأنا لو فرضنا وقوع مثل هذا الأسلوب - وهو في غاية السخف والركاكة - لما كان ذلك معارضة عند أحد من العقلاء. والسبق إلى الأسلوب أيضاً لا يكون معجزاً كما لا يكون السبق إلى نظم الشعر وقول الخطب وغير ذلك من العلوم معجزاً) [١].

و أيضاً: يقول الراوندي: (النظم لا يقع فيه تفاضل) [٢].

علماً، أنّ أغلبهم يرى أنّ النظم هو تأليف وترتيب في الألفاظ، لكن الجرجاني يرى أنه يكون للمعاني في النفس، أما الألفاظ والكلم فلا (لا نظم فيها ولا ترتيب) [٣].

٤- مناقشة الفصاحة والنظم والمجموع منهما:

ناقش أبو الصلاح الحلبي الإعجاز بالفصاحة، بحجة أنه إذا قبلنا ذلك صار بوسعنا التفريق بين قصار السور وبين الكلام الفصيح بشكل لا لبس فيه، ومثل هذا لم يحصل لنا، و أيضاً: ناقش الإعجاز بالنظم، لأنه - بنظره وآخرين- لا تفاوت فيه، و انتهى بالنتيجة إلى أنّ القرآن لم يخرق العادة بفصاحته ونظمه، ولمّا كان كل منهما منفرداً يقع تحت مقدور العباد، فالمجموع منهما حاله كذلك أيضاً، ثم قال: (وإذا بطلت سائر الوجوه ثبت أن جهة الإعجاز كونهم مصروفين) [٤].

---

١. الطوسي، الاقتصاد: ١٨٠.
٢. الراوندي، الخرائج والجرائح: ٣ / ٩٨٩.
٣. انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٥٥.
٤. انظر: أبو الصلاح الحلبي، تقريب المعارف: ١٥٧ - ١٥٨.

٥- مناقشة الفصاحة والأسلوب:

رفض الجويني الإعجاز بالفصاحة أو الأسلوب منفرداً ولذا اختار المجموع منهما، قال: (لأنّ كلّ واحد منهما غير متعذّر على العرب، لأنّه وجد في كلامهم ما هو بفصاحته وليس مثل أسلوبه، وكلام مسيلمة كأسلوبه وليس كفصاحته، وأمّا مجموعهما فغير مقدور للخلق) [١].

٦- مناقشة الفصاحة والأسلوب والعلوم الشريفة المتضمنة فيه:

رفض ابن ميثم البحراني أن يكون كل من (الفصاحة) أو (الأسلوب) أو (العلوم الشريفة) لوحده وجهاً للإعجاز؛ وحجته في ذلك: أنّ كلام العرب يوجد في بعضه فصاحة بالغة، وأما الأسلوب فهو - بنظره - أمر ممكن عند التكلّف، وأما العلوم الشريفة فربما وجد في كلام بعض الحكماء أو من قرأ الكتب الإلهية السابقة شيء من تلك العلوم. لذلك اختار - كما تقدم عنه - أن يكون الإعجاز في المجموع لا في كل واحد منها منفرداً، قال: (والحق أن وجه الإعجاز هو مجموع الأمور الثلاثة، وهي الفصاحة البالغة والأسلوب والاشتمال على العلوم الشريفة) [٢].

٧- مناقشة الإخبار عن الغيب والأولين وغيرها:

النقاش في وجه الإعجاز بالإخبار عن الغيب وسرد قصص الأولين والمتقدمين علم مما سبق؛ لأنه يستلزم أنّ الآيات التي تخلو منهما لا إعجاز فيها، وهو باطل [٣].

قال الطوسي: (ومن قال: جهة إعجازه ما تضمنه من الإخبار بالغايبات. ليس بصحيح، لأن التحدي وقع بسورة غير معينة، وأكثر السور وخاصة القصار ليس فيها

---

١. نقله عنه: البروجردي، تفسير الصراط المستقيم: ٢ / ٢٤٦.
٢. ابن ميثم البحراني، قواعد المرام في علم الكلام: ١٣٣.
٣. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٩٦.

أخبار بالغايبات، فلو كان ذلك مراعى لعارضوا بما ليس فيها ذلك وكانوا معارضين وذلك باطل) [١].

ومعلوم أنّ حجة النقاش هذه لا تقف عند هذا الحد، ولكن يمكن تسريتها على وجوه أخرى، مثل:

- الإخبار عن الضمائر.
- التشريع والأحكام،
- ما تضمنه من علوم أو معارف،
- ما تضمنه من أخلاق.

وغيرها، والسبب أنها جميعاً - لو قيل بها - تحصر الإعجاز في بعض آيات القرآن دون البعض الآخر، ولا يكون كلٌّ منها وجهاً شاملاً للقرآن كله.

٨- مناقشة ارتفاع الاختلاف والتناقض:

يقول الطوسي: (ومن قال: جهة الإعجاز ارتفاع الاختلاف والتناقض. فبعيد، لأن لقائل أن يقول: إن العاقل إذا تحفظ وتيقظ حتى لا يقع في كلامه تناقض لم يقع، فمن أين أنه خارق للعادة) [٢].

٩- الجرجاني يشنّع على القول بالإعجاز اللفظي للقرآن:

من طالع كلام العلماء وبحوثهم المتصلة بالإعجاز لا يشك أنّ "الإعجاز اللفظي" أخذ الحصة الأكبر منها، فالقول بإعجازه بالبلاغة أو الفصاحة والأسلوب والنظم والجزالة تراه (خصوصاً الفصاحة) يتكرر في جل كلماتهم وبحوثهم. كما لا شك أيضاً أنّ معظمهم يرى أنّ تلك الخصوصيات تعود إلى ألفاظ القرآن.

١. الطوسي، الاقتصاد: ١٨٠.
٢. الطوسي، الاقتصاد: ١٨١.

هذا، ولكن الجرجاني - ولأنه يرى الإعجاز في نظم المعاني كما تقدم عنه - شنّع في كتابه "دلائل الإعجاز" على القائلين بإعجاز القرآن اللفظي، فهو بعد أن أوضح أنّ الفصاحة (وكذلك النظم) تكون في المعنى لا اللفظ من حيث إنه لفظ ونطق لسان، وذكروجوهاً عديدة للرد على القائلين بأنها في اللفظ، قال:

(واعلم أنّ الذي هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالأباطيل في أمر "اللفظ" أنهم قوم قد أسلموا أنفسهم إلى التخيّل، وألقوا مقادتهم إلى الأوهام، حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل، ودخلت بهم من فحش الغلط في كل مدخل، وتعسّفت بهم في كل جهل، وجعلتهم يرتكبون نصرة رأيهم الفاسد القول بكل محال، ويقتحمون كل جهالة، حتى إنك لو قلت لهم: إنه لا يتأتى للناظم نظمه إلا بالفكر والرويّة، فإذا جعلتم "النظم" في الألفاظ، لزمكم من ذلك أن تجعلوا فكر الإنسان إذا هو فكّر في نظم الكلام، فكّر في الألفاظ التي يريد أن ينطق بها دون المعاني لم يبالوا أن يرتكبوا ذلك، ...) [١].

وقال أيضاً، كما تقدم عنه: (ليس لمن حام في حديث المزية والإعجاز حول "اللفظ"، ورام أن يجعله السبب في هذه الفضيلة، إلا التسكّع في الحيرة والخروج عن فاسد من القول إلى مثله) [٢].

بملاحظة فقرات البحث الثلاثة التي تقدمت:

يمكننا الجزم بأنّ مسألة إعجاز القرآن وما يتصل بها من بحوث خضعت لوطأة الآراء والاجتهادات الظنية بشكل كبير جداً، وإلا فلوكان الدليل في تلك المسائل (وتحديداً بيان وجه الإعجاز) واضحاً وجليّاً وكانت الحجة فيه قطعية لما رأينا كل ذلك الاختلاف الكبيروالرأي وضده في أغلب مفاصل المسألة.

---

١. الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٤١٥ - ٤١٦.

٢. المصدر السابق: ٦٢.

٤. وقفة مع الفصاحة وضابطها:

ابتداءً، قد تُطلق الفصاحة أحياناً - ولا أقل فيما يتصل بموضوع بحثنا - ويراد ما هو أعم منها ومن البلاغة، وهو إطلاق شائع في كلماتهم [١].

وأما معناهما على الانفراد، فقيل في تعريف البلاغة إنها: (الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ) [٢]. وقيل: هي (التعبير باللفظ الرائع عن المعنى الصحيح بلا زيادة ولا نقصان في البيان) [٣].

وأما الفصاحة عند البلاغيين، فهي - كما عرّفها أبو هلال العسكري - (تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ؛ لأن الآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى) [٤].

بينما جعل السكاكي قسم من الفصاحة راجع على المعنى (وهو خلوص الكلام عن التعقيد)، وقسم راجع على اللفظ (وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة) وعلامة ذلك كثرة استعمالها على ألسنة الفصحاء الموثوق بعربيتهم وأن تجرى على قوانين اللغة وسليمة عن التنافر (ما يوجب ثقل اللسان) [٥].

ويبدو أنّ الزمخشري أشار للقسم الثاني (اللفظي) عند تعريفه لها، قال: (والمراد بالفصاحة أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور وهم له أكثر استعمالاً) [٦].

---

١. انظر: القوشجي، شرح تجرد الاعتقاد: ٤٦٨.
٢. الباقلاني، إعجاز القرآن: ٢٨٦.
٣. الإيجي، المواقف: ٣ / ٣٧٧.
٤. أبو هلال العسكري، الصناعتين: ٨.
٥. انظر: السكاكي، مفتاح العلوم: ٤١٦.
٦. الزمخشري، الكشاف: شرح ص٢٨٨.

ونحن سنركز البحث على "الفصاحة" فقط؛ لأن وضوح حالها وشروط تحققها يكشف بالتبع حال البلاغة أيضاً، خصوصاً مع صحة إطلاق أحدهما على الآخر أحياناً من جهة بحثنا كما عرفنا. والسؤال المهم: ما هي شروط تحقق الفصاحة؟

تختلف شروط اللغة الفصيحة بين المدرستين اللغويتين البصرية والكوفية [١]، من جهة. كما أنها تختلف بين وصف "الكلمة" أو "الكلام" بها، من جهة أخرى.

٤.١- شروط فصاحة الكلمة:

يُعنى بها: (خلوصها مِنْ تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس اللّغوي) [٢].

فشروط فصاحة "الكلمة" إذن ثلاثة:

١- خلوصها من تنافر الحروف (أي: لا تسبّب ثقل اللسان وعسر النطق بها)،
٢- خلوصها من الغرابة (الكلمة الغريبة: هي الوحشية والغامضة؛ غير ظاهرة المعنى والاستعمال بالنسبة لمن هي وحشية له) [٣].
٣- خلوصها من مخالفة القياس اللغوي (الصرفي).

بالنسبة إلى الشرط الأول، لم تتكفل معاجم اللغة توضيح معنى "الثقل" ولا البلاغيين أنفسهم تكفّلوا ذلك، وما يُرى في كلامهم هو أنّ الثقل عكس الخفة، وهي مسألة نسبية بين متكلم وآخر بنظر بعضهم [٤]. نعم، جعل الخليل بن أحمد الفراهيدي (وتبعه غيره) ضابطة التمييز بين الخفة والثقل في مخارج الحروف بنحو يوجب عسراً في النطق [٥].

١. انظر: د. بشار باقر، مفهوم الفصاحة بين اللغة والشريعة: ١٠.
٢. الشيرازي، البليغ في المعاني والبيان والبديع: ٢٠.
٣. انظر: المغربي، مواهب الفتاح: ١ / ١١٣. قال: "والغرابة هي: كون الكلمة وحشية أي: غير مأنوسة الاستعمال، ويلزم كونها غير ظاهرة المعنى بالنسبة لمن تلك الكلمة وحشية لديه".
٤. انظر: فندريس، اللغة: ٩٢، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص.
٥. انظر: الفراهيدي، النكت في إعجاز القرآن: ٩٦.

بناء عليه، فمثل كلمة "أعهد" في الآية " أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" [يس: ٦٠] لا تكون فصيحة؛ لاشتمالها على ثلاثة حروف متقاربة المخرج هي: الهمزة والعين والهاء.

حاول بعضهم (كالتفتازاني في المختصر) تبرير ذلك بأن مثل "أعهد" لا تضر بفصاحة القرآن ما دام أنها كلمة تقع ضمن كلام طويل فصيح [١]، لكن محاولته - على كل حال - غير صحيحة؛ لأن شرط "تنافر الحروف" ليس لفصاحة الكلام ككل وإنما هو شرط لفصاحة الكلمة الواحدة.

ذكر هذا الرد ابن يعقوب المغربي في كتابه "مواهب الفتاح" في معرض نقاشه لمحاولة التفتازاني، وأضاف ردوداً أخرى كان آخرها قوله: (بأن التزام وجود كلام غير فصيح - ولو لم يطل في التنزيل "القرآن" - بل وجود كلمة غير فصيحة، مما يقود إلى نسبة ما لا يليق بجلاله تعالى إليه من الجهل، أو العجز، إذ لا موجب لترك الفصيح إلى غيره عادة إلا أحد هذين، فالواجب الجزم بعدم التنافر بتقارب المخرج، كما يشهد به الذوق، والله اعلم) [٢].

وإذن، فهو لا يعتبر "ضابطة تقارب مخارج الحروف" سبباً للحكم بعدم فصاحة الكلمة، ويجعل الذوق شاهداً على ما انتهى إليه!

وهكذا أصبحت الضابطة البلاغية في مهب الريح بعد مخالفة القرآن لها، وليس هذا حال البلاغيين فقط ولكنه حال النحاة والمفسرين وغيرهم أيضاً، فهم يسارعون للتنازل عمّا أسسوه وقعّدوه لما يكونوا محرجين (كمخالفة القرآن الصريحة لهم)، ثم يعودوا ويتمسكوا به في مواضع أخرى لا تشكّل لهم إحراجاً.

الجرجاني من جهته، لما كان يرى الفصاحة في المعنى - كما تقدم عنه - دون اللفظ وما يلحقه من صفات كالتلاؤم والانسجام بين حروفه، ضعّف هذا الشرط بقوله: (وهذه شُبهةٌ أُخرى ضعيفةٌ، عسى أن يتعلَّقَ بها مُتعلِّقٌ ممَّن يُقْدم على القولِ من غيرِ رويّةٍ: وهي

١. انظر: التفتازاني، مختصر المعاني: ١٥، المغربي، مواهب الفتاح: ١ / ١١٢.
٢. المغربي، مواهب الفتاح: ١ / ١١٣.

أنْ يَدَّعي أنْ لا معنى للفصاحة سِوى التلاؤمِ اللَّفظيّ، وتعديلِ مِزَاجِ الحُروفِ حتى لا يتلاقى في النُّطقِ حروفٌ تَثْقلُ على اللسَان) [١].

وبعد ضعف الضابطة يعود "التنافر" أو الخفة والثقل في "الشرط الأول" إلى أن يصبح ذوقياً ويختلف من شخص لآخر، كما انتهى إليه المغربي وغيره، ولا توجد ضابطة علمية دقيقة في المسألة.

يقول الشيرازي: (والضّابط للتّنافر أنّ كلّ ما يعدّه الذّوق الصّحيح ثقيلاً متعسّر النّطق به فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك) [٢].

ثم إنّ الشرط الثاني ليس بأفضل حالاً من الأول، فالغرابة والتوحش (الغموض) أيضاً مسألة نسبية (كما سمعناه من ابن يعقوب المغربي)، تختلف من مكان لآخر ومن بيئة لأخرى، فربَّ كلمة غامضة (غريبة) بنظرنا الآن لكنها ليست كذلك عند المتقدمين، مثل: كلمة "الجِرِشَّى" بمعنى "النْفس" فهو لفظ غريب بالنسبة لنا، لكنه لم يكن كذلك في زمن المتنبي لما أنشد مادحاً سيف الدولة:

مبارك الاسم أغرّ اللقب ... كريم الجرشى شريف النسب [٣]

لذا فهو - أي المغربي - قسّم الغريب إلى: قسم قبيح ومستكره ذوقاً، وقسم مستحسن، ثم قال: (فغرابة المستحسنة إخلالها بالفصاحة نسبي يكون باعتبار قوم وهم المولدون دون قوم وهم الخلّص) [٤].

و أيضاً: ورد لفظ الغريب في القرآن، مثل: "فلا تعضلوهن" [٥].

لكن أكيد أنّ المغربي وغيره من البلاغيين (الذين صنّفوا الغريب إلى قسمين سيبرّرون ذلك بأنّ غريب القرآن لا يضر بالفصاحة؛ لأنه ليس بمستكره ذوقاً (لأنه قرآن)

---

١. الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٥٧.
٢. الشيرازي، البليغ في المعاني والبيان والبديع: ٢١.
٣. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٢ / ٢٣٨.
٤. المغربي، مواهب الفتاح: ١ / ١١٣.
٥. انظر: الزركشي، البرهان: ٢ / ٢١٢.

ويرون أنه من قسم الغريب المستحسن، وأنّ فصاحة القرآن إنما هي باعتبار الخلّص من العرب الذين يعرفون دلالات ألفاظه، وهو بالضبط ما قاله المغربي [(١)].

إلا أنّ حال أبي بكر وعمر وابن عباس يشهد بخلاف ذلك، فهم لا يدرون معنى: "أبّاً"، "فاطر"، "غسلين" في الآيات [(٢)]، اللهم إلا إذا كان البلاغيون لا يرون أنهم عرب خلّص وأنّ القرآن مقتصر على أمثال امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني فقط، ولا أدري إن كان هؤلاء يعرفون معاني كل مفردات القرآن ودلالاته فعلاً، وهو فرض بعيد جداً بطبيعة الحال.

وعموماً، لما كان الشرط الثاني لفصاحة الكلمة (خلوصها عن الغرابة) أمر نسبي وذوقي كما سمعناه منهم، فهذا يعني - أيضاً - عدم وجود ضابط علمي دقيق يتم من خلاله التحقق من مسألة فصاحة الكلمة.

أما الشرط الثالث (خلوص الكلمة من مخالقة القياس الصرفي)، فإطلاقه يوجب الطعن بالقرآن كذلك بشكل واضح؛ لاستعماله ما يخالف القواعد الصرفية في موارد عديدة، منها: "استحوذ"، في قوله تعالى: "اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ" [المجادلة: ١٩]، فالقياس الصرفي فيها أن يقال - كما قرأ عمر بن الخطاب [(٣)] - : "استحاذ" [(٤)] كـ "استقام" تماماً.

ومنها: "كذّاباً" في قوله تعالى: "وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا" [النبأ: ٢٨]، فالقياس الصرفي فيها أن يقال: "تكذيباً"؛ لأنه مصدر لـ "فَعَّل" فيكون على وزن "تفعيل"، كما جاء كذلك في آيات أخرى مثل: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا" [الإنسان: ٢٣]، و "كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" [النساء: ١٦٤].

---

١. انظر: المغربي، مواهب الفتاح: ١ / ١١٥.
٢. انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ١ / ٣٠٤.
٣. انظر: ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز: ٥ / ٢٨١.
٤. انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ١٣٤؛ ابن منظور، لسان العرب: ٣/ ٤٨٧؛ المراغي، علوم البلاغة: ٢٠.

لكن - كالعادة - استثنى علماء البلاغة وغيرهم هذه المفردات ونحوها رغم مخالفتها الشرط الموضوع من قبلهم، بل بعضهم [١] أعطى لتلك المخالفة القرآنية لقواعد الصرف ميزة بلاغية ودلالية ما كانت لتكون لولا تلك المخالفة !

٢.٤- شروط فصاحة الكلام:

يُعنى بفصاحة الكلام: (خلوصه من ضعف التّأليف، وتنافر الكلمات، والتّعقيد، مع فصاحتها) [٢].

فها هنا شروط أربعة لفصاحة الكلام، هي [٣]:

١- سلامته من تنافر الكلمات (أي: لا يوجب اجتماعها الثقل في اللسان).
٢- سلامته من ضعف التأليف (أي: جارٍ وفق المشهور من قواعد النحو).
٣- سلامته من التعقيد (أي: ضعف المعنى المراد من الكلام، وهو إما لفظي أو معنوي).
٤- فصاحة الكلمات (أي: فصاحة كل كلمة في الكلام).

وأضاف بعضهم شرطين آخرين: كثرة التكرار، وتتابع الإضافات [٤].

بالنسبة إلى الشرط الأول، فالبلاغيون صنّفوا التنافر إلى: شديد يكون بمجموع كل كلمة مع أخرى في الكلام (مثل: قرب قبر)، أو أخفّ منه يكون باجتماع بعض الحروف (مثل: متى أمدحه أمدحه)، بسبب تكرار الحاء والهاء في كلمتين، فهو أوجب ثقلاً في اللسان.

---

١. انظر: د. جمال عبد العزيز أحمد (الأستاذ في جامعة القاهرة) في مقال له بعنوان: "البِنية الصرْفية ودورها في كشف الدلالة القرْآنية -١" منشور على صحيفة الوطن الأردنية. متاح على هذا الرابط:
http://alwatan.com/details/١٢٢٩١٤

٢. الشيرازي، البليغ في المعاني والبيان والبديع: ٢٢.

٣. انظر في بيان المراد منها: المصدر السابق؛ و أيضاً: المغربي، مواهب الفتاح: ١ / ١١٨.

٤. انظر: الشيرازي، المصدر السابق: ٢٧.

أما لماذا لا يسبّب اقتران الحاء والهاء خللاً في فصاحة الكلمة الواحدة ويوجب ثقلها أيضاً؟ أجابوا: لأن ذلك وارد في القرآن الكريم، مثل: "فسبّحه" [١] !

وهكذا، نرى ضرب القاعدة أيضاً بعد مخالفة القرآن لها، ثم السعي للترقيع وإبقاء ما يمكن أن يتبقّى منها. فلا يكاد يختلف حال "الشرط الأول" هنا عما ذكرناه سابقاً في فصاحة الكلمة، ولا توجد ضابطة علمية دقيقة لتمييز "ثقل الكلام"، ومن ثمّ لا يبقى غير الاحتكام إلى الذوق وهو أمر نسبي كما لا يخفى [٢].

وأكثر من ذلك: فبعضهم [٣] عمد إلى كلمات واضحة في الثقل وصعوبة النطق - باعترافه هو - مثل: "أنلزمكموها" و"عمّيت" في الآية [٤] واعتبرها غاية في الفصاحة؛ لأن صعوبة النطق في "الأولى" تحكي صعوبة الإلزام بالآيات وهم كارهون لها، كما أنّ الإدغام والتشديد في "الثانية" يساهم في وصف التعمية والإلباس! علماً أنّ مثل هذا التكلّف في مسألة ربط اللفظ بالمعنى وإشارته إليه لا قيمة له أصلاً بنظر علم اللغة الحديث كما سيتضح لاحقاً.

وأما الشرط الثاني، فهو "رب المصائب" كما يقال، خصوصاً إذا ما عرفنا أنّ قواعد النحو ليست سوى قواعد مبنيّة على الاستقراء الناقص وضعت في زمن متأخر قياساً بوجود العرب واستعمالهم الكلام الفصيح، وبالتالي فهي ظنية إذن، ويمكن مخالفتها دون أن يؤثر ذلك على فصاحة الكلام.

يقول السيد الخوئي: (إن القرآن نزل في زمان لم يكن فيه للقواعد العربية عين ولا أثر، وإنما أخذت هذه القواعد - بعد ذلك - من استقراء كلمات العرب البلغاء، وتتبع تراكيبها. ..... ومعنى هذا: أن القاعدة العربية المستحدثة إذا خالفت القرآن كان هذا نقضاً على تلك القاعدة، لا نقداً على ما استعمله القرآن) [٥].

١. انظر: المغربي، مواهب الفتاح: ١ / ١١٩ - ١٢٠.
٢. انظر: الصعيدي، البلاغة العالية: ٢٣.
٣. انظر: د. محمد أبو موسى، خصائص التركيب: ٦٤.
٤. قوله تعالى: ""فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ" هود: ٢٨.
٥. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٧٧.

ولكن هل يُفهم من كلامه أنّ القرآن خالف قواعد النحو؟ الجواب: نعم بكل تأكيد، وهو - أي السيد الخوئي - ما قال كلامه هذا أساساً إلا للرد على شبهة نفي بلاغة القرآن لمخالفته قواعد النحو.

ثم إنّ القرآن لم يخالف قواعد النحو في مورد أو موردين ليهون الأمر، ولكن في موارد كثيرة، منها على سبيل المثال:

- قوله تعالى: "وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً" [الأعراف: ١٦٠]:

كان يفترض - وفق قواعد النحو - أن تكون "سبطاً"؛ لأن تمييز الأعداد المركبة من (١١ - ٩٩) مفرد منصوب عند مشهور النحاة [١].

- قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [المائدة: ٦٩].

بحكم تبع المعطوف للمعطوف عليه وفق المشهور بين النحاة، كان يفترض أن تكون "والصابئين"، كما جاءت كذلك في آية أخرى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البقرة: ٦٢].

وليس القرآن فقط لم يعتنِ بقواعد النحو في كلامه، ولكن عدم العناية واضحة كذلك في كلام الشعراء (الذين يحتج بقولهم في علوم اللغة)، كقول الفرزدق:

وعضّ زمَان يَا ابْن مَرْوَان لم يدعْ   من المَال إلاّ مسحتاً أَو مجلّفُ

ولما اعترضه ابن إسحاق الحضرمي قائلاً: "بِمَ رفعت أَو مجلف"؟ أجابه: "بما يسوءك وينوءك، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا" [٢].

١. انظر: الهمداني، شرح ابن عقيل: ٢ / ٤١٢؛ السيوطي، همع الهوامع: ٢ / ٣٤٧ - ٣٤٨.
٢. انظر: البغدادي، خزانة الأدب: ٥ / ١٤٥.

وأما الشرط الثالث (التعقيد)، فاللغوي منه يُقصد به: أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بسبب عدم نظم الكلام كأن يكون فيه تقديم أو تأخير أو إضمار ونحو ذلك. والبلاغيون بالرغم من أنّهم اشترطوا خلوّ الكلام منه لأجل اتصافه بالفصاحة، لكنهم في نفس الوقت حكموا بفصاحته أحياناً بالرغم من تعقيده اللفظي.

فمثلاً: يقول المتنبي في أحد أبياته المعقدة:

وفاؤكُما كالرّبْعِ أشجاهُ طاسِمُه ... بأن تُسعِدا والدّمعُ أشفاه ساجِمُهْ

علّق عبد الملك الثعالبي على هذا البيت قائلاً: (هو ممّا تكلّف له اللفظ المتعقد والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفي شرفه وغرابته بالتعب في استخراجه ولا تقوم فائدة الانتفاع به بإزاء التأذي باستماعه) [١].

لكن القاضي الجرجاني قال معلّقاً على نفس البيت الشعري: (ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة، والتعقيد المُفرط، فيشك أن وراءَها كنزاً من الحكمة، وأن في طيّها الغنيمة الباردة؛ حتى إذا فتّشها، وكشف عن سترها، وسهِر ليالي متوالية فيها حصل على أن وفاءكما يا عاذليّ بأن تُسعِداني إذا درس شجاي، وكلما ازداد تدارُساً ازددت له شجْوا؛ كما أن الربع أشجاه دارسُه. فما هذا من المعاني التي يضيع لها حلاوة اللفظ، وبهاء الطبع، ورونق الاستهلال) [٢].

ويقول العميدي عنه أيضاً: (والله لو أوقد الإنسان ألف شمعة ليستضيء بنورها إلى استنباط غوامض هذا البيت مع قلة الفائدة فيه لصعب عليه) [٣].

بيت المتنبي إذن (كمثال) بالرغم من اعتراف الجميع بتعقيده اللفظي لكن بنظر كثير من علماء البلاغة لم يؤثر على فصاحته، وهذا يعني أنّ التعقيد اللفظي أمر نسبي ويحتكم فيه إلى الذوق أيضاً كحال ما سبق من شروط.

---

١. النيسابوري، يتيمة الدهر: ١ / ١٨٢.
٢. الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٨.
٣. العميدي، الإبانة: ٢ / ٩٦.

وأما التعقيد المعنوي، فيُقصد به: أن لا يكون الكلام ظاهر الدّلالة على المراد لخلل واقع في انتقالِ الذّهن مِن المعنى الأوّل المفهوم بحسب اللُّغةِ إلى المعنى الثاني المقصود بالكلام. ويبدو أنّ البلاغيين ذكروا هذا القسم من التعقيد تقليداً للقزويني لا أكثر لمقابلة التعقيد اللفظي لا غير، ولهذا لم يذكروا له غير شاهد واحد فقط في كتبهم، وهو قول العباس بن الأحنف:

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

يقول د. عامر الثبيتي: (والعجيب أن شرّاح التلخيص لم يستطيعوا إيجاد شواهد أخرى للتعقيد المعنوي غير قول العباس السالف مما يوحي بأنّ القزويني لم يضع هذا الشرط باستقراء للأخطاء في كلام العرب، وإنما أراد أن يقابل التعقيد اللفظي بالتعقيد المعنوي وتبعه البلاغيون في ذلك) [١].

أما كثرة التكرار، فهو لا يؤثر على فصاحة الكلام دائماً، وإنما فقط في حال تسبّبه بثقل اللسان كما يقول البلاغيون، ولذا أرجعه بعضهم إلى الشرط الأول.

يقول د. بشار باقر: (والملاحظ أن مواقف البلاغيين إزاء التكرار متباينة، تجدهم يمدحونه في باب ويذمونه في باب آخر، يمدحونه في باب الإطناب ويذمونه في باب الفصاحة والإيجاز والقصر.

يقول السبكي في شرحه للتلخيص: "إن المصنف ذكر في باب القصر أن التكرار من عيوب الكلام، وكلام السكاكي أيضاً يشعر به، وذكر المصنف في الإيضاح هنا أنه ليس بعيب، وكذلك في باب الإطناب؛ بل جعله حسناً فإنه أحد أنواع الإطناب، وجعله في باب الإيجاز عيباً، والجمع بين الجميع أن منه الحسن، ومنه القبيح. ونقل حازم عن جماعة، أن التكرار يحسن في مواضع الشوق والمدح والهجاء".

وقد ورد مثل هذا التكرار في القرآن لكنه لم يولد ثقلاً في اللسان، كقوله تعالى: "وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا" [الشمس: ١-٣] وهكذا تتكرر الضمائر

١. الثبيتي، مآخذ على فصاحة الشعر: ١٠٠.

إلى آخر الآية، وقوله تعالى: "رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا" [آل عمران: ١٩٤] وقوله تعالى: "وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا" [البقرة: ٢٨٦]. فكل هذه التكرارات ليس فيها ثقل، وبالتالي لا دخل لها في الفصاحة) [١].

وأما تتابع الإضافات، فهو كحال الشرط السابق، أي إنه يؤثر على فصاحة الكلام فقط في حال تسبّبه بثقل اللسان فيرجع إلى الشرط الأول [٢].

وواضح أنّ القرآن الكريم احتوى على توالي الإضافات، كقوله تعالى: " مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ" [غافر: ٣١]، وقوله تعالى: " ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا" [مريم: ٢]، وأجابوا عنها بأن تتابع الإضافات فيها لا يسبب ثقل اللسان وبالتالي فهي لا تنافي فصاحة الكلام.

بهذا يتضح أنّ شروط الفصاحة (سواء كانت للكلمة الواحدة أو للكلام) لم تثبت بدليل قطعي، ولم تخضع في شروط تحققها لضوابط علمية دقيقة تجري في جميع الموارد والحالات، وإنما هي - كما لاحظنا - مجرد شروط ناتجة عن الاجتهادات الظنية والأذواق المتباينة، ولهذا رأينا مخالفة القرآن (والشعر الفصيح أيضاً) لمجمل شروطها، وبالتالي فهي - أي الفصاحة - ليست بأكثر من كونها أمراً نسبياً خاضعاً لظروف المستمعين وبيئاتهم المختلفة التي ينشؤون فيها ونحو ذلك.

قال ابن أبي الحديد: (اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح والرشيق والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ولا يمكن إقامة الدلالة عليه) [٣].

---

١. د. بشار باقر، مفهوم الفصاحة بين اللغة والشريعة: ٣٠.
٢. انظر: القزويني، الإيضاح: ١ / ٣٧.
٣. انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٤٧٨.

٥. مناقشة الإعجاز اللفظي للقرآن:

لا يكاد يخفى على من طالع كلام العلماء في بيان وجوه الإعجاز، أنّ الإعجاز اللفظي (فصاحة ألفاظ القرآن أو بلاغتها أو نظمها وأسلوبها)، كان هو الأبرز؛ فهي لا تكاد تفارق معظم أقوال العلماء، لذا يمكننا اعتبار الإعجاز اللفظي للقرآن أقوى وجوه الإعجاز بنظر أغلب علماء المسلمين إن لم يكن جلّهم، ولهذا اعتبروا علوم البلاغة "المعاني والبيان والبديع" من "أعظم أركان المفسر" فبه يُدرك وجه الإعجاز بنظرهم [١].

يقول الشيخ السبحاني - بعد إبطال القول بالصرفة -: (ولأجل وهن هذه النظرية، صار السائد بين المسلمين عامة وأكابر الشيعة خاصة، كون القرآن معجزاً من حيث الفصاحة العليا والبلاغة القصوى والأسلوب البديع) [٢].

هذا، ولكننا حقّقنا القول في معنى الفصاحة وشروطها في فقرة البحث السابقة، ورأينا أنها أمر نسبي يخضع للأذواق المختلفة، ولم تكن لدى البلاغيين ضابطة (أو ضوابط) علمية دقيقة يمكن الرجوع إليها وإخضاع "الكلمة الواحدة" أو "الكلام" لها لتمييز فصاحته وبلاغته! وقد اعترف بعض العلماء بذلك صراحة:

قال الخطابي: (ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها وصغوا فيه إلى حكم الذوق) [٣].

وقال الزركشي: (إن التحدي إنما وقع بسورة تبلغ في الطول مبلغاً يتبين فيه رتب ذوي البلاغة فإنه قد يصدر من غير البليغ أو ممن هو أدنى في البلاغة من الكلام البليغ ما يماثل بعض الكلام البليغ الصادر عمّن هو أبلغ منه وربما زاد عليه ولا يمكن ضبط

---

١. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١ / ٣١٢؛ القزويني، تلخيص المفتاح: ١٢.
٢. السبحاني، محاضرات في الإلهيات: ٣١٥.
٣. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٠١.

الكلام الذي يظهر فيه تفاوت البلغاء بل إنما ضبط بالمتعارف المعلوم بين أهل الخبرة والبلاغة) [١].

وبخصوص كلام القرآن (المعجز لفظياً بنظرهم)، فإنّ المسألة أكثر تعقيداً؛ لأننا لا نتحدث عن تمييز الكلمة أو الكلام الفصيح عن غيره من الكلام غير الفصيح، وإنما نتحدث عن "الفصاحة المعجزة" أو "النظم المعجز" أو "الأسلوب المعجز".

بكلمة ثانية: نحن - في مسألة إعجاز القرآن اللفظي كما يقولون - لا نتحدث عن مطلق "الفصاحة" ليقال إنّ العلماء وضعوا ضوابط لتحديد وتمييز الكلام الفصيح عن غير الفصيح، وإنما نتحدث - تحديداً - عن "الفصاحة المعجزة" كما هم قرّروها وجهاً للإعجاز، وبالتالي فهم ليسوا مضطرين إلى تقديم ضابطة للتمييز بين الكلام الفصيح والأكثر فصاحة فحسب، ولكنهم أيضاً مجبرين - لكي يصح منهم وجه الإعجاز الذي اختاروه - على تقديم ضابطة توضح عبور الكلام مرحلة "الأكثر فصاحة" وبلوغه مرحلة "الإعجاز الفصاحتي"، فمراتب الكلام - من هذه الجهة - ستكون أربعة:

١. كلام غير فصيح.
٢. كلام فصيح.
٣. كلام أكثر فصاحة.
٤. كلام معجز من حيث الفصاحة.

وإذا كانت شروط الفصاحة عند العلماء (كما تقدم) لم تمنحنا ضابطة علمية دقيقة لتمييز الفصاحة في المرتبة الثانية فضلاً عن الثالثة (التي تحوي دون شك مراتب عديدة؛ لأنّ الأكثر فصاحة ليس كله بمستوى واحد)، وأنّ الأمر في تمييز ذلك نسبي ويرجع إلى الذوق في كلا المرتبتين كما عرفنا، فما بالك بمعرفة "الفصاحة المعجزة" ضمن مستوى المرتبة الرابعة، وما هي الضابطة العلمية الدقيقة التي وضعها العلماء لمعرفة "الفصاحة المعجزة" وتحديدها وتمييزها عن الكلام الأكثر فصاحة؟!

---

١. الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: ١ / ٣٥٧.

فمثلاً: ما هي الضابطة العلمية التي ركنوا إليها للحكم بأنّ مثل قوله تعالى: "وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ" [البقرة: ٢٣٥] معجز لفظي، ولا يكون مثل قول امرئ القيس:

"وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٌ مدبرٌ معاً ... كجلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ" [١]

معجزاً لفظياً؟

لاحظ جيداً دقة مطالبتي لهم، فأنا لا أنفي وجود فرق بين الكلامين (وسيتبين لاحقاً وجه الإعجاز الذي ينطوي عليه القرآن كله ومنه الآية الكريمة)، لكني الآن أطلب بيان الضابط العلمي الذي استندوا إليه واعتبروا "الأول = الآية" معجزاً لفظياً وواقعاً ضمن حدود الإعجاز اللفظي (المستوى الرابع)، دون "الثاني = كلام امرئ القيس" الذي نفوا عنه الإعجاز اللفظي واعتبروه - في أحسن أحواله - تابعاً لفصاحة المستوى الثالث (الأكثر فصاحة)؟

حقيقة، إنّ من يراجع كلام العلماء في هذا الباب لا يجد شيئاً يمكن التعويل عليه والركون إليه، اللهم إلا أن يقال: إنّ سبب وقوع الأول ضمن خانة الإعجاز اللفظي دون الثاني هو كونه قرآناً، وهو المصادرة بعينها [٢] ورجوع إلى المدّعى ومحل النقاش وليس بياناً لضابطة علمية يعوّل عليها في هذه المسألة الحسّاسة.

ونحن - من جهتنا - يمكننا ببساطة أن نقول: من أين ثبت للعلماء - بنحو القطع واليقين - أنّ جهة إعجاز القرآن لفظية وراجعة إلى "الفصاحة المعجزة" كما يقولون، بل هل يوجد في اللغة - أي لغة كانت - شيء اسمه لفظ معجز أصلاً؟! وسيتضح في فقرة

١. أنظر: الأصفهاني، الأغاني: ٩ / ٥٠.
٢. المصادرة بأبسط تعريف لها: "أن تأتي بمحل النقاش وتجعله دليلاً على المدّعى".

البحث القادمة أنّ اللغة عموماً ما هي إلا نتاج تطوري خاضع لسنّة التطوّر الإلهية التي تحكم الوجود المادي كله ولم يشذ عنها شيء في عالمنا الذي نعيش فيه.

وسأكتفي بعرض مثالين من أقوال العلماء في وصف "البلاغة المعجزة":

١- يقول الباقلاني: (وما صح أن تتبين فيه البلاغة، ومحصولها الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ، وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام، فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى، كان بالغاً وبليغاً. فإذا تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، و انتهى إلى أمد يعجز عنه الكامل في البراعة - صح أن يكون له حكم المعجزات، وجاز أن يقع موقع الدلالات) [١].

الباقلاني في الحقيقة لم يقدّم أكثر من: تعريف للبلاغة بشكل عام، ثم تعريف للبلاغة المعجزة، ولم يقدم ضابطة علمية يتم تطبيقها لمعرفة كيفية وصول الكلام مرحلة يُوصف حينها بأنه أكثر بلاغة (أو الغاية في البلاغة على حد تعبيره)؟ ثم كيف يتم تجاوز تلك المرحلة ويبلغ أمد أعلى منها حتى تصبح بلاغته معجزة للآخرين؟ لم يبيّن الباقلاني شيئاً يذكر بهذا الصدد، أما مجرد كون البلاغة المعجزة بالغة أمد يعجز عنه البلغاء، فهذا أمر يعرفه الجميع وهو واضح أصلاً من نفس معنى الإعجاز كما عرفناه سابقاً.

٢- يقول التفتازاني: ((ولها) أي لبلاغة الكلام (طرفان: أعلى وهو حد الإعجاز) وهو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته. ..... (وأسفل وهو ما إذا غير) الكلام (عنه إلى ما دونه) أي إلى مرتبة أخرى هي أدنى منه و أنزل ..... (وبينهما) أي بين الطرفين (مراتب كثيرة) متفاوتة بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات، والبعد من أسباب الإخلال بالفصاحة) [٢].

ابتداءً، ينبغي أن نعرف أنّ الكلام المحصور بين قوسين في المقطع هو لجلال الدين القزويني صاحب "تلخيص المفتاح"، وشرح التفتازاني كلامه في كتابه "مختصر المعاني".

---

١. الباقلاني، إعجاز القرآن: ٢٨٦.

٢. التفتازاني، مختصر المعاني: ٢٣.

والملاحظ أنّ الأول اكتفى ببيان أنّ للبلاغة حداً معجزاً، بينما اكتفى الثاني بتعريف البلاغة المعجزة، ولم يقدّم كلا العالمين المتضلّعين في علوم البلاغة والبيان ضابطة علمية دقيقة توضح لنا كيفية وصول الكلام مرحلة الإعجاز البلاغي ليتم اعتمادها وتطبيقها للتمييز بين البليغ المعجز وغيره من الكلام الأكثر بلاغة فما دون. فهما - بالنتيجة - ليسا بأحسن حالاً من الباقلاني من هذه الجهة.

وبهذا نخلص إلى النتيجة التالية: لا وجود لضابطة علمية دقيقة في بيان الإعجاز في جانب البلاغة والفصاحة في اللغة عموماً ومنها لغة القرآن، وكذلك في تمييز الكلام الفصيح عن غيره، ولا في تمييز الفصيح عن الأكثر فصاحة فضلاً عن تمييز المعجز في فصاحته عمّا هو دونه؛ تماماً كعدم وجود دليل علمي قطعي على أنّ إعجاز القرآن الكريم إعجاز لغوي.

مفارقة غريبة:

القائلون بإعجاز القرآن اللفظي يرون أنّ إعجاز القرآن وبالتالي حجيته في إثبات نبوة النبي (صلى الله عليه آله) من جهة فصاحة ألفاظه التي أعجزت الخلق عن الإتيان بمثله، ولا شك أنّ من يقرأ القرآن فضلاً عمّن يتدبّر مضامينه يجد أنّ أهم ما أكد عليه هو حجية الرسل والأنبياء الذين اختارهم الله سبحانه وأوجب طاعتهم، وأنّ موسى (عليه السلام) كانت له حصة ومساحة مهمة وكبيرة من آيات القرآن الكريم. والغريب أنّ القرآن نفسه جعل لموسى الحجية ووجوب الطاعة رغم أنّ هناك من هو أفصح منه لساناً باعترافه هو كأخيه هارون (عليه السلام)، قال تعالى حكاية عن قول موسى: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ" [القصص: ٣٤].

واضح من الآية الكريمة أنّ هارون أفصح لساناً من موسى، ولكن مع هذا جعل الله الحجية لموسى على هارون وغيره من الخلق. من هنا يتبادر السؤال التالي: هل يعقل أن يكون القرآن حجة ومعجز من جهة الفصاحة وهو في نفس الوقت يقرّر في مضمونه أنّ الفصاحة ليست معياراً في تنصيب الحجة على الخلق؟!

٦. اللغة نتاج تطوري:

رجوع إعجاز القرآن الكريم إلى جانبه اللغوي أمر لا يمكن قبوله، بالرغم من أننا لا ننكر علوّ ألفاظه وسموّها في إيصال المعاني المقصودة، لكن هذا لا يعني أن يكون في نفس الألفاظ "إعجازاً"؛ خصوصاً بعد فقدان الضابطة العلمية لتمييز الفصاحة في الكلمة أو الكلام وأنها أمر نسبي وذوقي كما عرفنا.

في نقطة البحث هذه نريد أن نتعرف على أمرين مهمين:

الأول: معنى اللغة ونشوئها بشكل عام، وأنها نتاج تطوري توفَّر للإنسان بعد مسيرة تطورية طويلة جداً على هذه الأرض.

الثاني: مناقشة مقولة أفضلية بعض اللغات على بعض، فهل اللغة العربية (التي نزل بها القرآن الكريم) أفضل اللغات فعلاً، وبالتالي تتمكّن من أن تبيّن وجه إعجاز القرآن (كما يرومه القائلون بالإعجاز اللفظي) دون سواها من سائر اللغات؟

البحث في هاتين الجنبتين وإن كان يحتاج إلى دراسة مستقلة مفصلة، لكن هذا لا يمنع من أن نتعرف على ما له صلة وثيقة ببحثنا بنحو تتوضح فيه عدم مقبولية القول بالإعجاز اللغوي للقرآن الكريم.

١.٦- اللغة ظاهرة اجتماعية:

في معاجم اللغة، اللغة: (أصَواتٌ يُعَبِّر بها كل قوم عن أغراضهم) [١]. وهو المعنى الذي ذكره ابن جني "أحد أهم علماء اللغة المتقدمين" [٢].

١. ابن منظور، لسان العرب: ١٥ / ٢٥١.
٢. انظر: ابن جني، الخصائص: ١/ ٣٣.

بحسب هذا التعريف، تكون وظيفة اللغة هي التواصل من أجل تحقيق الأغراض، وبالتالي فهي ظاهرة اجتماعية وأنّ لكل قوم لغتهم الخاصة بهم.

ويرى عالم اللغة السويسري دي سوسير De Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣ م) - أحد أهم مؤسسي علم اللغة الحديث" - أنّ اللغة نظام من الإشارات "دال ومدلول" أو الرموز الصوتية التي تعبّر عن الأفكار، وهذا النظام له قواعده وترتيبه الخاص به، وهو إرث يكتسبه الفرد من جماعته، فهي - أي اللغة بنظره - نتاج اجتماعي لابد من قبوله بحيث لا يتمكن الفرد من تغيير أي إشارة من تلك الإشارات أو الرموز إذا ما استقرت في المجتمع اللغوي [١].

دي سوسير أيضاً يرى أنّ اللغة خاضعة للتطور بمرور الزمن، بل ويعتبر التغيير والتطور (أمر لا مناص فيه، ولا توجد لغة واحدة في العالم تقاومه، فما أن تمضي فترة من الزمن حتى تدوّن بعض التغييرات الواضحة. إنّ التغيير أمر لابد منه) [٢].

هو إذن - كغيره من علماء اللغة المتأخرين - لا يختلف مع ابن جني من جهة اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية الهدف منها تحقيق التفاهم والتواصل بين الناس. فالمهم من وجود اللغة هو تحقق هذا الغرض ولا شيء آخر، ولهذا فهو - أي دي سوسير - لا يعتبر العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة طبيعية ومنطقية وإنما هي إشارة "اعتباطية" - كما يسميها - استقر عليها عرف المجتمع اللغوي لأي لغة من اللغات.

معنى ذلك: لا توجد علاقة طبيعية - مثلاً - بين لفظ "أخضر" وبين معناه بالعربية، والدليل أنه يمكن إبداله بألفاظ كثيرة جداً في لغات أخرى تؤدي نفس الغرض وتوصل إلى نفس المعنى، مثل: لفظ "Green" بالإنجليزية و"Vert" بالفرنسية و"Midori" باليابانية و"yeşil" بالتركية و"سبز" بالفارسية، وهكذا.

يترتب على هذا بطبيعة الحال: عدم وجود مبرر منطقي للتفاضل بين اللغات بعد أن كانت كلها تؤدي نفس الغرض، يقول: (أما اللغة فهي نظام من الإشارات الاعتباطية

١. انظر: دي سوسير، علم اللغة العام: ٢٧، ٣٤، ٨٧، فما بعد.
٢. المصدر السابق: ٩٤.

أي تفتقر إلى الأساس الضروري والأرضية الصلدة للمناقشة. إذن ليس من سبب يجعلنا نفضل لفظة soeur "أخت" على sistre، oshs "ثور" على boeuf وغيرها) [١].

كون اللغة ظاهرة اجتماعية، هو الثابت الآن في علم اللغة الحديث عموماً وعلم الاجتماع الحديث أيضاً. والظاهرة الاجتماعية بشكل عام تمتاز - بحسب عالم الاجتماع الفرنسي المعروف دوركايم Durkheim (١٨٥٨ - ١٩١٧ م) - بأنها:

١- نظام عام يشترك في اتباعه جميع أفراد المجتمع ويتخذونه أساساً لتنظيم حياتهم الجماعية.
٢- ليست من صنع الأفراد و إنما هي نتاج طبيعة المجتمع (العقل الجمعي)، وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعة.
٣- يُقهر عليها الفرد ويلقى من المجتمع مقاومة تلغي عمله بل وتعتبره ضرباً من ضروب العبث العقيم إن هو قرّر الخروج والتمرد عليها.

ذكر د. علي عبد الواحد وافي هذه الشروط ثم قال: (وهذه الخواص الثلاث تتو افر في اللغة على أكمل ما يكون) [٢].

فهو يرى أنّ (اللغة في كل مجتمع نظامٌ عام يشترك الأفراد في اتباعه، ويتخذونه أساسًا للتعبير عما يجول بخواطرهم، وفي تفاهمهم بعضهم مع بعض. واللغة ليست من الأمور التي يصنعها فردٌ معين أو أفراد معينون، و إنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل للأفكار، وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظامًا لغويًّا يسير عليه مجتمعه فيتلقاه عنه تلقيًا بطريق التعليم والمحاكاة، كما يتلقى سائر النظم الاجتماعية الأخرى، ويصب أصو اته في قوالبه، ويحتذيه في تفاهمه وتعبيره) [٣]. وبمثل ذلك قال أمين الخولي أيضاً في كتابه "مشكلات حياتنا اللغوية" [٤].

---

١. انظر: المصدر السابق: ٩١.
٢. وافي، اللغة والمجتمع: ٥.
٣. المصدر السابق: ٦.
٤. أمين الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية: ٤٠.

٢.٦- هل اللغة توقيف أم تواضع؟

إن كانت اللغة هبة ومنحة إلهية حصلت دفعة واحدة بالوحي والإلهام وما شابه فهي توقيف، وإن كانت بتواضع وتوافق وتواطؤ جماعة من الناس فهي تواضع واصطلاح. وكلا هذين القولين - وتحديداً الأول - تجده رائجاً لدى أصحاب الفكر الديني الكلاسيكي.

من اختار التوقيف "اللغة صنع الله" - ومنهم ابن فارس [١] - استند إلى ظاهر نص ديني، وهو قوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" [البقرة: ٢٣١]. فبحسبهم أنّ الله سبحانه علّم آدم (عليه السلام) أسماء الأشياء "اللغة"، ثم هو علّمها للبشر. لكن أي لغة تعلّمها آدم من الله بعد أن كان عدد اللغات التي يتحدث بها الناس كثيرة جداً؟ هنا برز التعصّب العرقي أو الديني، فـ (قال قوم: هي السريانية، وقال قوم: هي اليونانية، وقال قوم: هي العبرانية. وقال قوم: هي العربية) [٢].

ولأن مسألة اللغة الأولى التي نطق بها آدم "أو أصل اللغات، وهل كانت واحدة أو متعددة" كانت ولا زالت معرفتها عصيّة عليهم، ينقل السيوطي [٣] اختلاف القائلين بالتوقيف بين:

- من يرى أنّ اللغات كلها تم صنعها في بدء الخليقة (زمن آدم بحسبهم).
- ومن يرى أنّ التوقيف وقع على لغة واحدة ابتداء ثم حصل توقيف على لغات أخرى بعد طوفان نوح.
- وثالث يرى أنّ اللغة الأولى كانت توقيفية وما تلاها من لغات يمكن أن تكون توقيفية أو تكون حصلت بالتواضع.
- ورابع يرى أنّ اللغة التوقيفية الأولى هي العربية فقط واللغات الأخرى نشأت إثر التحريف الذي تعرضت له!

---

١. ابن فارس، الصاحبي: ٢-٣.
٢. انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام: ١ / ٣٠.
٣. السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١ / ١١، ٢٧، ٣٠.

و أيضاً: من أهل التوقيف من ذهب إلى أنّ اللغة العربية ظهرت في مرحلة متأخرة عندما حشر الله الخلائق إلى بابل، ومنهم من ذهب إلى أنّ العربية ظهرت أول مرة بعد قدوم إسماعيل (عليه السلام) إلى مكة واستقراره بها، و أنه أول من تكلم بالعربية بعد أن نسي لسان أبيه إبراهيم (عليه السلام) [١].

وهكذا، فالمسألة - كما نرى - غير منضبطة عندهم وما يقال فيها - بعد عدم خضوعها للدليل القطعي - مجرد ظنون واحتمالات لا أكثر.

أما من اختار التواضع والاصطلاح، أي يصطلح اثنان أو أكثر من الناس على تسمية شيء باسم يرتضونه ويتفقون عليه ثم يجري عليه الآخرون، ففسّروا الآية المتقدمة بأنّ الله أَقدَرَآدم على التسمية والكلام "اللغة".

يصوّر الفارابي التواضع فيقول: (فهكذا تحدث أولًا حروف تلك الأمة وألفاظها الكائنة عن تلك الحروف، ويكون ذلك أولًا ممن اتفق منهم، فيتفق أن يستعمل الواحد منهم تصويتًا أو لفظة في الدلالة على شيء ما عندما يخاطب غيره فيحفظ السامع ذلك، فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة، ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك فيقع به، فيكونان قد اصطلحا وتواطآ على تلك اللفظة، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند جماعة، ثم كلما حدث في ضمير إنسان منهم شيءٌ احتاج أن يفهمه غيره ممن يجاوره، اخترع تصويتًا فدل صاحبه عليه وسمعه منه فيحفظ كل واحد منهما ذلك وجعلاه تصويتًا دالًّا على ذلك الشيء، ولا يزال يحدث التصويتات واحدًا بعد آخر ممن اتفق من أهل ذلك البلد، إلى أن يحدث من يدبر أمرهم ويضع بالإحداث ما يحتاجون إليه من التصويتات للأمور الباقية التي لم يتفق لها عندهم تصويتات دالة عليها، فيكون هو واضع لسان تلك الأمة، فلا يزال منذ أول ذلك يدبر أمرهم إلى أن توضع الألفاظ لكل ما يحتاجون إليه في ضرورية أمرهم) [٢].

---

١. المصدر السابق: ٣٢ - ٣٣.

٢. الفارابي، كتاب الحروف: ١٣٨، تحقيق: د. محسن مهدي.

أول ما يرد على التواضع أنه قول بلا دليل كسابقه، و أيضاً: لم يحصل أن التاريخ - الذي نقل تفاصيل كثيرة - نقل لنا أنّ اثنين (أو أكثر) من حكماء البشر أو غيرهم اجتمعوا و اتفقوا على وضع اللفظ الفلاني "في أي لغة كانت" لمعناه المعين!

أضف إليه: كم ستحتاج اللغة (التي تؤدي غرضها في التفاهم والتواصل) من وقت إن كانت تنشأ بطريق التواضع والاتفاق الذي صوّره لنا الفارابي؟ أعتقد أنّ شيوع مفردات بسيطة بين الناس سيستغرق عقوداً عديدة خصوصاً في ظل الظروف البدائية السائدة عند الأقدمين وبساطة إمكانات النشر وسبل الاحتكاك والتواصل المتاحة لهم قديماً، فما بالك بنشوء لغة كاملة!

نعم، ربما يصلح التواضع لأن يكوّن لغة خاصة (بحدود مفردات يسيرة جداً قياساً بمفردات لغة متكاملة) في جانب علمي معين، وهو بالضبط ما يحصل في الطب والهندسة والفيزياء وغيرها من العلوم، فعادة ما يعمد واضعون معينون لوضع مجموعة مصطلحات تخص معاني معينة في مجال علمي محدد، وهي مع هذا تحتاج إلى سنين عديدة ليحصل تراكم عدد لا بأس به من المصطلحات التي يدرسها طالب الهندسة مثلاً في أيامنا هذه.

ولكن هذا الأسلوب لا يصلح أبداً أن يُنشئ لغة تفي بأداء الوظيفة المرجوّة منها وحصول التفاهم والتواصل بين مجموعة كبيرة من الناس بشكل عام، علماً أنّ مثل هذا (أي نشوء لغة بل لغات متعددة) حصل ويحصل باستمرار بين الناس بكل تلقائية ويسر وسهولة، ولا يحتاج حصوله إلى أيٍّ من تعقيدات فرضية الوضع كعقد الاجتماعات والاتفاقات بين الواضعين وما شابه ذلك.

أضف إلى ذلك: إنّ اللغة ظاهرة اجتماعية كما تقدم أو "كائن اجتماعي" بحسب وصف البعض لها، والظاهرة الاجتماعية - كما عرفنا - لا يتسبّب بصناعتها فرد أو أفراد محددين، و إنما تكون نتيجة جهد المجموع تلقائياً وبدون وعي منهم. وهذا يؤشر إلى وجود شيء في تركيبة الإنسان البايولوجية يسهّل عملية صناعة اللغة وتكوينها بكل يسر وتلقائية.

والإشارة الأخيرة بالذات يمكن أن تُلاحَظ بقوة من قبل أي متابع لبحوث كبار علوم اللغويات الحديثة، أمثال: نعوم تشومسكي وستيفن بنكر وأمثالهم.

٣.٦- خطّان مهيمنان على الساحة العلمية:

في نهاية القرن التاسع عشر حاول العالم الألماني ماكس مولر Max Muller البحث عن عودة اللغات إلى أصل مشترك، لكن بحثه لم يأتِ بنتيجة.

من جهتها، فإنّ المدرسة السلوكية (التي تفترض أنّ الأنشطة التي تقوم بها الكائنات الحية - ومنها الإنسان - عبارة عن سلوكيات قابلة للملاحظة والقياس) أخضعت اللغة كنشاط إلى كونها إحدى السلوكيات التي يقوم بها الإنسان متأثراً فيها بعدة عوامل خارجية كالمحيط والبيئة، ولا علاقة لها بالعامل الداخلي في وجود الإنسان كالغريزة والعقل ونحو ذلك.

تعتقد المدرسة السلوكية بأنّ اللغة:

١- مجموعة من العادات التي يتعلمها الأطفال بالتقليد والتكرار.
٢- تلعب البيئة والمحيط دوراً أساسياً في نموها.
٣- يتم اكتسابها بطرق مشابهة لتعلم السلوكيات والمهارات الأخرى مثل: المحاكاة والتقليد، الترابط والتكرار، الاشتراط والتعزيز المتمثل بالمكافئة عند الإصابة والعقاب عند الخطأ.

فاللغة - بنظر السلوكيين - لما كانت سلوكاً، يكون تعلّمها - والحال هذه - بنفس الطريقة التي تؤدي إلى تعلم سائر السلوكيات والمهارات التي تكتسبها الكائنات الحية، أي طريقة التحفيز (الاستثارة) والاستجابة. فيحصل مع الطفل نتيجة التكرار والاقتران والتحفيز (التشجيع) الذي تفعله معه أمه - مثلاً - للربط بين الأشياء وأسمائها بمرور الوقت ما حصل مع كلب بافلوف Pavlov (العالم الروسي ١٨٤٩ - ١٩٣٦ م) في تجربته الشهيرة وسيلان لعاب الكلب عن سماعه صوت الجرس نتيجة التكرار والاقتران بين الصوت وتقديم الطعام له، وهي التجربة التي عمّمها عالم النفس الأمريكي سيكنر

Skinner (١٩٠٤ - ١٩٩٠ م) على حيوانات أخرى وعلى الطفل أيضاً في اكتساب لغته الأم [١].

ظلت النظرة السائدة عن اللغة على هذا الحال، إلى أن جاءت نظرية "النحو التوليدي" للبروفيسور نعوم تشومسكي Noam Chomsky في منتصف القرن العشرين تقريباً. فاللغة بنظره لم تعد سلوكاً وإنما هي بناء بايولوجي عقلي يستعمله الطفل بيسر وسهولة لتوليد لغته الأم من خلال تواصله مع أهله ومحيطه [٢].

يرى تشومسكي أنّ عملية اكتساب اللغة فطرية وتتم بصورة لا واعية من الإنسان، فالإنسان - أي إنسان - مبرمج داخلياً "جينياً" على معرفة اللغة، كما أنّ تلك المهارة تنمو في الطفل بصورة لا واعية تماماً كما تنمو بقية أعضائه دون وعي منه. ثم إنّ التركيبات والقوالب التي يستمد منها الطفل مهارته في اكتساب اللغة لا تنتمي إلى لغة معينة، لذا يمكن أن تكون لغته الأم أي لغة كانت. ولو كان اكتساب اللغة يعتمد على التجربة والتدريب فقط - كما يقوله السلوكيون - لما كان بإمكان الطفل أن يأتي بتراكيب لغوية وجمل جديدة لم يكن قد دُرّب عليها وتعلمها أصلاً [٣].

جدير بالذكر، إنّ تشومسكي وإن كان يرى اللغة - كقالب ونظام - غريزة وفطرة أو "ملكة" إنسانية (بحسب تعبير دي سوسير)، لكنه لا يقبل إخضاعها لمبدأ التطور والانتخاب الطبيعي، كما يظهر من كلامه المكتوب أو عبر اللقاءات والندوات العلمية التي يجريها، وإنما يرى ظهورها فجأة في بناء الإنسان البايولوجي بعد عدم وجود ما يدل على الإرث التطوري لدى الأسلاف فيما يتصل بهذه الملكة بشكل حاسم.

في قبال ذلك، يوجد خط لغوي آخر على رأسه ستيفن بينكر Steven Pinker الذي يتفق مع تشومسكي في كون اللغة غريزة وفطرة لكنه في نفس الوقت يخضعها إلى مبدأ الانتخاب الطبيعي، فالغريزة اللغوية بنظره تمكّنت من الظهور لدى الإنسان من خلال بناء جيني في دماغه خضع لمبدأ التطور وآليات الانتخاب الطبيعي عبر ملايين السنين.

---

١. انظر: د. غسان إبراهيم الشمري، مقال بعنوان "اكتساب اللغة من القواعد إلى المبادئ". متاح على الرابط التالي:
https://www.ammonnews.net/article/٦١٩٢٢

٢. انظر: تشومسكي، المعرفة اللغوية: ٨٠ - ٨٦، ترجمة: محمد فتيح.

٣. جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية: ٢٤٩، ترجمة: حلمي خليل.

وهذان الخطّان اللغويان - تقريباً - هما المهيمنان حالياً على الساحة العلمية العالمية فيما يتعلق باكتساب اللغة.

علماً أنّ كلا الخطين لا ينكران دور التربية والتعليم والبيئة المحيطة في صقل موهبة الإنسان في اكتساب اللغة، لذا يؤكد "بنكر" أنّ الأطفال الذين يُعزلون عن ذويهم ولا يسمعون منهم لغة معينة ينشؤون بُكماً بدون لغة [١]، وهذا يعني أنّ القالب والنظام اللغوي بالرغم من وجوده بايولوجياً في الإنسان إلا أنه يبقى غير فعّال أصلاً عند عدم تعبئته بالمفردات.

وأيضاً: يؤمن كلا الخطين بأنّ اللغة ليست جامدة وإنما تتغير وتتطور بمرور الزمن، تماماً كما سمعناه من دي سوسير وغيره.

وبشكل عام، فإنّنا إذا تتبعنا بحوث علم اللغة الحديث وفق ما انتهى إليه علماء اللغة أمثال دي سوسير وتشومسكي وبنكر وغيرهم، يمكننا تشخيص عدة مبادئ أساسية يكاد يتفقون عليها، منها:

١- إنّ اللغة ظاهرة اجتماعية؛ الهدف منها تبادل الأفكار والتواصل بين الناس، وهو السبب في وجودها أصلاً.
٢- إنّ جميع اللغات الحية خاضعة للتطور والتغير بمرور الزمن.
٣- إنّ كل لغة تحتوي نظاماً متكاملاً وكافياً لتحقيق الغرض، ولا فرق بين جميع اللغات من هذه الناحية، وبالتالي لا مبرر منطقي لمقولة التفاضل بين اللغات أساساً.

يقول بنكر: (فبنو الإنسان لا يفكرون بالإنجليزية أو الصينية أو الاباشية، بل يفكرون بلغة التفكير، ويبدو أنّ لغة التفكير هذه شبيهة بهذه اللغات كلها) [٢].

معنى كلامه: إنّ هناك قالباً ونظاماً لغوياً عاماً لدى جميع البشر (يسميه بنكر باللغة العقلية الكلية) يحكم جميع اللغات الإنسانية، ويؤدي نفس الوظيفة والغرض،

١. ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية: ٣٥٣، تعريب: حمزة بن قبلان المزيني.
٢. ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية: ١٠٣، تعريب: حمزة بن قبلان المزيني.

أما المفردات التي يُعبأ بها هذا النظام فلا يهم أن تكون مفردات أي لغة كانت سواء عربية أو إنجليزية أو صينية أو أي لغة أخرى.

٤.٦- تطورات بايولوجية ساهمت بنشوء وتطور اللغة:

اكتملت في بناء الإنسان بايولوجياً في ألوف السنين الأخيرة مجموعة من التغيرات ساهمت بشكل كبير في نشوء وتطور اللغة عنده، وهي لم تكن لتحصل دفعة واحدة أو أنها ظهرت في تركيبه الأحيائي فجأة، وإنما احتاج توافرها واكتمالها في الإنسان إلى ملايين السنين كما هو الشأن عادة في توفر سائر المزايا الأحيائية وفق منظور نظرية التطور الدارويني.

استعرض د. عباس الحسيني أهم تلك الجوانب في بحثه [١]، وهي:

١- زيادة حجم دماغ الإنسان.
٢- تشكّل مراكز اللغة في القشرة المخية وباقي أجزاء الدماغ.
٣- التخصّص في عمل شقّي الدماغ.
٤- السيطرة على التنفس وتوظيف أعضائه في النطق.
٥- تطوّر منطقة الحنجرة والتجويف الحلقي.
٦- تطوّر الجهاز العصبي.
٧- تطوّر جهاز النطق لأداء الوظائف اللغوية.

لكن هل نطق الإنسان بمجرد توفره على هذه التغييرات التي طرأت على كيانه الأحيائي؟ في الحقيقة، الأمر غير محسوم علمياً، خصوصاً بعد عدم توفر بيانات علمية دقيقة وحاسمة سلباً أو إيجاباً، لكن ما هو محسوم علمياً الآن أنّ زيادة حجم الدماغ وتخصّص عمل شقي الدماغ وتطور الجهاز العصبي ونحوها مما ذكر أعلاه (والتي اكتملت لدى الإنسان بحدود ٥٠ - ١٠٠ ألف عام الأخيرة من عمر الإنسان بحسب بعض

١. انظر: د. عباس الحسيني، العوامل التي أسست لظهور اللغة الإنسانية: الفصل الثالث.

العلماء) [1] أسهم بشكل حتمي في تهيئة الأرضية المناسبة لتحقق النطق وبدء نشوء اللغة لدى الإنسان.

٥.٦- تلخيص وبناء:

تلخص بما تقدم:

١- إنّ اللغة ظاهرة اجتماعية، الغرض منها التفاهم والتواصل بين الناس.

٢- لا دليل علمي صحيح يؤكد توقيفية اللغة (الأصل السماوي لها) وأنها منحة إلهية وُهبت للإنسان دفعة واحدة بوحي أو الهام، كذلك لا دليل علمي على أنها حصلت بالموافقة والتواضع؛ خصوصاً بعد مشاهدة حصولها من جميع الناس بيسر وسهولة وتلقائية، وهي بذلك خلوٌ من سائر التعقيدات التي يفترضها "التواضع والاصطلاح" كما بيّنا.

٣- الرأي العلمي السائد الآن في المجامع العلمية أنّ اللغة غريزة وفطرة، وهذا ما يفسّر سهولة تحصّل الإنسان عليها، وإن كان منقسماً بين توجهين كما عرفنا، مع اتفاق الطرفين على أنّ اللغة نفسها كمفردات خاضعة للتطور حتماً.

٤- بحسب علم اللغة الحديث أيضاً، فإنّ التركيب والقالب الذي يستمد منه الإنسان (الطفل) مهارته في اكتساب اللغة لا ينتمي في حقيقته إلى لغة معينة، وعليه فلغته الأم يمكن أن تكون أي لغة كانت، وهذا الأمر يمكننا أن نتحقق منه ببساطة، فالطفل البريطاني سيتكلم العربية بيسر وسهولة إن عاش بين عائلة عربية، والعكس صحيح أيضاً.

٥- إنّ اللغة - أي لغة كانت - تحوي نظاماً وقالباً معقداً (يشترك فيه كل البشر) تؤدي معه اللغة غرضها المنشود منها بعد تعبئته بالمفردات، ولا ميزة للغة على أخرى من هذه الناحية وبالتالي لا معنى للتفاضل بين اللغات مطلقاً.

٦- إنّ جميع اللغات الحيّة تخضع لحتمية التطور والتغير بمرور الزمن، ولا يشذ عن هذه الحتمية أي لغة من اللغات.

---

١. انظر: د. عباس الحسيني، العوامل التي أسست لظهور اللغة الإنسانية: ٦٨.

إذا اتضح هذا، يمكننا أن نبني عليه ونقول:

لا شك - علمياً - في صحة نظرية التطور، وأنّ التطور يهدف بالنتيجة إلى وجود كائن حي يتمتع بآلة ذكاء فائق وهو الإنسان، وقد أوضح السيد أحمد الحسن هاتين الحقيقتين بأجلى بيان في كتابه "وهم الإلحاد"، يقول:

(ونحن نرى في الطبيعة أنّ الحياة والتطور مقننة وضمن سنة تسير عليها، فالأيض والحياة لها قانون دقيق أوجدها وهي تسير وفق تلك الخريطة الجينية التي تمثل تركيباً معقداً ومنظماً بدقة، وأيضاً المحيط أو الطبيعة لها قوانين تحكم توجه هذه الخريطة الجينية من الخارج باتجاه معين أو لنقل هدف على المدى القصير، ونحن إذ نجد أنّ هذه الأهداف قصيرة المدى عندما تراكمت أوصلتنا إلى هدف ولم توصلنا إلى لا شيء أو إلى عدم، فأكيد أننا نحكم أنّ هذه القوانين هادفة أو لنقل بدقة: إنّ من قننها هادف، فما بالك إذا وجدنا إضافة إلى ذلك أنها وصلت إلى هدف عظيم وكبير وذي قيمة في الخارج هو آلة ذكاء الإنسان، أو لنقل: الإنسان الذي جعل كل شيء جديداً على هذه الأرض، ألا يجدر بنا القول: إنّ هذا كافٍ ليثبت أنّ المقنن للتطور أو من سنّ سنن التطور أو لنقل من وضع الخريطة الجينية المنتجة للحياة هادف ومدرك لعمله منذ البداية خصوصاً بعد أن يثبت لنا أنه هو السبب الأصيل لوجود المادة وديمومتها كما سيأتي) [1].

وبقدر تعلّق الأمر باللغة، فإنّ خريطة الله الجينية التي بُذرت في هذا الأرض قُدّر لها أن تُنتج بحكم قوانين نظرية التطور - عاجلاً أم آجلاً إن توفر لها الوقت الكافي، وهو كذلك - كائناً حيّاً متوفراً على بناء بايولوجي يمكّنه من النطق وتكوين اللغة على ضوء القالب والنظام الذي هُندس فيه، فكان الإنسان دون غيره. أما تعبئة ذلك القالب والنظام فيمكن أن يتم بمفردات أي لغة كانت سواء عربية أو فارسية أو عبرية أو إنجليزية أو ألمانية أو إسبانية أو صينية أو غيرها من سائر اللغات الموجودة في عالمنا اليوم أو التي تستحدث مستقبلاً، فلا فرق بين اللغات من هذه الناحية مطلقاً، تماماً كحال جهاز حاسوب متوفر على نظام تشغيل متطور ويمكنك تشغيله بأي لغة شئت.

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٢٤٣.

وأكيد أنّ مفردات أي لغة كانت لم تكن لتظهر دفعة واحدة، بل حتى القائلين بالوقف أو التواضع يقرّون قضية استكمال (= تطور) اللغة تدريجياً، ولا يهمني الآن الخوض كثيراً في مسألة نشوء مفردات أول لغة إنسانية وكيف حصلت، وهل كانت تقليداً حصل من الإنسان لما حوله من مخلوقات، أو أنها تعبير عن ألم أو حاجة معينة لديه أو غير ذلك، فالأمر - من هذه الناحية - غير محسوم علمياً، لكن ما هو مهم الآن هو أن نعرف أنّ اللغة نتاج تطوري يتم السير فيها من البساطة إلى التعقيد؛ فهي نتاج تطوري من حيث بنائها ونظامها البايولوجي، وهي نتاج تطوري من حيث نشوء مفرداتها أيضاً، فمفردات اللغة - أي لغة كانت - هي نتيجة جهد متراكم لأجيال من البشر، يستكمل فيه كل قوم جهود من سبقهم ويبنون عليه ثم يكملون هم المسيرة ويطورون ويضيفون، إلى أن يجد التالون أنفسهم في مرحلة متأخرة أنهم أهل لغة خاصة بهم، يحدث ذلك بصورة تلقائية وبدون وعي منهم ربما في كل مراحل المسيرة التطورية للغة، وهذا لم يحصل لقوم محددين فقط ولكن حصل مع جميع الأقوام الذين يجدون أنفسهم مضطرين للتفاهم والتواصل فيما بينهم، ومن ثم تعددت اللغات وتكثرت بعد أن كان الأساس (القالب والنظام) متوفر لدى الجميع، ولهذا فـ (لم يحدث أن اكتشفت أي قبيلة خرساء) - كما يقول بنكر [١] - في أي منطقة من العالم مهما كانت نائية أو معزولة.

يقول أمين الخولي عن تطور اللغة: إنه (أصل أصيل في حياة اللغة بما هي كائن اجتماعي، وأساس التطور هو الوجود البسيط أولًا، ثم النماء المترقي ثانيًا، وخلال هذا الانتقال يتكون الكائن مترقيًا، ويتغير تغيرات متدرجة .... وعلى ذلك لن نهتدي إلى صواب من الرأي في مشكلات حياتنا اللغوية إلا إذا ما أخذنا أنفسنا في تبين هذه المشكلات بالمنهج الذي يقرر عكس ما قرره الأقدمون في تكون اللغة العربية وحياتها) [٢].

وعموماً، فإنّ تطور أي لغة كانت ليس بالنحو الذي يفترضه التواضع (الذي قاله الأقدمون)، بل هو أسرع ممّا هو متوقع بكثير؛ لأن عملية تطور اللغة لا تعني ابتداءها من الصفر، و إنما هي - كما قلت - عملية تراكمية، فاللغة الاسترالية - مثلاً - إنجليزية ولكنها

١. ستيفن بنكر، الغريزة اللغوية: ٣٤، تعريب: حمزة بن قبلان المزيني.
٢. الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية: ٤٦.

تطوّرت منذ دخول المستوطنين البريطانيين في نهاية القرن الثامن عشر، وهي الآن تختلف عن الإنجليزية البريطانية في طريقة اللفظ والتراكيب وحتى كتابة المفردات، ومثلها الإنجليزية الأمريكية قياساً بالإنجليزية البريطانية [١].

كون اللغة نتاجاً تطورياً، كافٍ لدحض فكرة أنّ لغة ما (عربية كانت أو غيرها) تحوي إعجازاً لغوياً (في ألفاظها) بنحو لا تمتلكه أي لغة أخرى، فمثل هذا القول لا معنى له أصلاً؛ لأن القالب والنظام الذي زوّد به الإنسان هو واحد لدى البشر كلهم، أما تعبئته بالمفردات وتشغيله بها فهذا أمر عائد للإنسان نفسه بحسب بيئته ومحيطه وظروفه التي يحيا فيها، علماً أنّ الغرض من توفر (القالب واللغة بتبعه) يتحقق بأي لغة كانت، فالتفاهم والتواصل و إنجاز الأغراض المتوقفة عليهما يحصل بجميع اللغات كما هو واضح.

نعم، يمكن أن يحصل تفاوت "عرضي" بين اللغات، لكن لا من جهة القالب والنظام (فهو واحد في الجميع كما عرفنا)، ولا من جهة نفس الألفاظ التي تحتويها اللغات، و إنما لأمر طارئ خارج عنهما، فما حصل مع اللغة العربية - مثلاً - سابقاً من اهتمام يحصل مثله اليوم مع اللغة الإنجليزية تماماً، فلما ظهر بين العرب آنذاك علماء كتبوا في جوانب علمية ومعرفية مهمة وجدت الشعوب (التي تتحدث بلغات أخرى) نفسها مضطرة للاهتمام بالعربية وترجمة تلك الكتب لأجل الاطلاع والمعرفة، وهو ما يحصل مع لغة العلم العالمية في أيامنا هذه، أعني الإنجليزية.

لكن ليس ما حصل مع العربية سابقاً، ولا ما يحصل اليوم مع الإنجليزية يصحح لأهل أحد هذين اللسانين الزعم بأنّ لغتهم تحوي ما لا تحويه اللغات الأخرى من إعجاز لغوي وما شابه من مزايا خاصة فريدة، والحال أنّ العارض المذكور هو الموجب لشدة الاهتمام بالعربية قديماً وبالإنجليزية اليوم، وإلا فلو قدّر لأهل لسان آخر الآن أن يهيمنوا على العلوم ويكتبوها بلغتهم فحتماً سنجد بقية شعوب العالم تتسارع للاهتمام بلغتهم أيضاً بهدف المعرفة والاطلاع.

---

١. انظر: د. عباس الحسيني، العوامل التي أسست لظهور اللغة الإنسانية: ٨٠.

٦،٦- سير اللغة من البساطة إلى التعقيد:

شأنها شأن أي كائن متطور، فإنّ اللغة سارت من البساطة إلى التعقيد كحال الإنسان نفسه. وإذا أردنا هضم مسألة التطور في اللغة أكثر يمكننا النظر إلى كيفية إنماء الطفل للغته - أي لغة كانت - شيئاً فشيئاً إلى أن يتحصّل عليها بصورة كاملة مع نضجه وتقدمه في العمر تدريجياً، ثم تبقى هي في تطور مستمر مع الإنسان بحسب دواعيه وأغراضه وتنوع حاجاته واهتماماته، وهكذا. ولولا ذلك ما أضافت قواميس لغات العالم المهمة كالإنجليزية إلى نفسها كلمات جديدة كل فترة، وإلا فمثل الكلمات المستحدثة كـ "سيلفي" أو "الأنترنت" أو المصطلحات التي تتعلق بالعلوم والفنون والإعلام والأمراض الجديدة ونحوها كيف سيتم التعامل معها؟ أكيد أنّ التعامل معها إما بإدخالها إلى اللغة الأم بوضعها الذي هو عليه، أو بترجمتها و إيجاد بديل يفي ببيانها؛ الأمر الذي تفعله عادة لجان لغوية مختصة ومكلفة بتحديث القواميس اللغوية بشكل دوري.

المجتمع الإنساني الحديث المنحدر من أفريقيا باتجاه الوادي الخصب (الخليج الحالي) في عشرات ألوف السنين الأخيرة من عمر الإنسان - وهذا أمر ثابت علمياً بحسب بحوث علم الآثار والجينات [١] - أكيد كانت لديه لغة منطوقة معينة (مهما كانت بدائية وبسيطة) كوسيلة للتفاهم والتواصل فيما بينهم؛ خصوصاً بعد اكتمال نظام اللغة البايولوجي لديهم (الذي تحدثنا عنه سابقاً) قبل تلك الفترة.

يقول السيد احمد الحسن: (ثم يسجل علم الآثار بتتبع الأدوات ظهور المهارات لدى الهومو سابينس وهجرته بحدود (٧٠) ألف سنة تقريباً، وهذه الهجرة كانت هجرة ناجحة أدت إلى انتشار البشر في كل الأرض، وقد كانت هجرة مجموعة صغيرة (منتقاة) عن طريق باب المندب في البحر الأحمر من أفريقيا إلى الجزيرة العربية، وكانت في تلك الفترة المياه منحسرة، فتمكنت مجموعة من العبور، وأخذت هذه المجموعة المنتخبة من هومو سابينس أفريقيا تتقدم في جنوب شبه الجزيرة العربية؛ لوجود ينابيع المياه على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة في ذلك الوقت حيث كانت مكشوفة قبل أن تغطيها

١. انظر: أحمد الحسن، وهم الإلحاد: الفصل الثالث.

مياه البحر نتيجة ارتفاع مستوى سطح البحر، وهذه الينابيع ساعدتهم على تجنب صحراء الجزيرة، وتمكنوا من أن يقطعوا الجزيرة العربية على الخط الساحلي مروراً باليمن وعمان الحاليين حتى وصلوا إلى منطقة الخليج المغطاة بالمياه حالياً، وهي لم تكن مغطاة بالماء المالح بعد في تلك الفترة بل كانت وادياً دافئاً تجري فيه الأنهار التي تدخله من الشمال (أي من جنوب العراق الحالي وجنوب غرب ايران الحالي)، وكان الوادي (الخليج الحالي) مكاناً مناسباً جداً للعيش فيه، فهو مليء بالأنهار والبحيرات والأهوار والغابات ودافئ، وهذا أمر مهم جداً في تلك الفترة، حيث مرت الأرض بفترة صقيع وبرد قاسية مع نهاية العصر الجليدي الأخير، فكان هذا الوادي مكاناً مثالياً لنمو البشر الأوائل، مكان مليء بالمياه العذبة والثمار والغذاء، ويمكن أن نقول: إنه أفضل مكان لنمو الإنسان العاقل في تلك الفترة، وهنا تكاثرت أعدادهم، وهاجر بعضهم إلى بقية أنحاء العالم) [١]،

ثم بعد حصول الطوفان الذي أدّى إلى امتلاء الوادي الخصب بالمياه بحدود (٨ - ١٥) ألف سنة ق.م (بحسب التحديد العلمي له) ونزوحهم إلى جنوب العراق (بلاد سومر لاحقاً) ومنه إلى الصين وشمال أفريقيا وبقية العالم، بكل تأكيد كانوا يحملون معهم الإرث اللغوي البدائي "اللغة الأم" لآبائهم وأسلافهم، وقد تطورهو الآخر على أيديهم حتماً بحكم تعقد حياتهم ونمط معيشتهم بعد اكتشاف الزراعة والتدجين شيئاً فشيئاً بمرور الزمن. ثم بتفرقهم وتشتت مناطق استقرارهم يحصل الاختلاف في لهجة كل فئة منهم بتقادم الزمن حتماً حتى يبلغ مرحلة الانفصال عن اللغة الأم وتكوين لغة جديدة تصبح لغة أم مع مرور الوقت، ثم تتطور الأخيرة إلى لهجات ابتداء ثم إلى لغات أم جديدة، وهكذا تكونت شجرة اللغات بمرور الزمن وتعاقب القرون والأجيال وتعقدت وتشعبت بتعقد حياة الإنسان وازدياد اكتشافاته وحاجاته وتنوعها، تماماً كما حصل مع شجرة الكائنات الأحيائية في علم الأحياء، حتى بلغ الأمر بالنهاية إلى ظهور اللغات المتعددة وصولاً إلى اللغات الموجودة في عالمنا اليوم.

ثم إنّ بعض اللغات في مسيرة التطور اللغوية تصمد (ضمن حدود قانون الانتخاب والبقاء للأقوى) وتمرر للأجيال اللاحقة وتستمر بالتالي في سيرها التطوري، وبعضها

١. المصدر السابق: ١١٥ - ١١٦.

ينقرض في سباق التنافس على البقاء نتيجة ظروف معينة كنسبة المتحدثين بها أو اختلاط أهلها واحتكاكهم بلغة أقوى منها واستيلاء الأخيرة عليها تدريجياً، تماماً كما هو الحال في كل الأمور الواقعة تحت هيمنة التطور وآلياته التي يعرفها الملمّون بنظرية التطور الداروينية.

من الطبيعي جداً - والحال هذه - أن نجد بين لغات العالم المختلفة (ولا أقل بعضها) جذوراً مشتركة وقريبة من بعضها البعض، وهو بالضبط ما أكدته الدراسات العلمية الحديثة [1]، تماماً كالتقارب الذي يلمسه علماء الأحياء بين الإنسان وبين بعض الحيوانات القريبة منه (كالقردة العليا) في التصنيف الأحيائي (في عدد الكروموسومات مثلاً)، وكما أنّ علم الأحياء علّل ذلك القرب بوجود السلف المشترك الذي انحدر منه الاثنان، كذلك يكون السلف المشترك بين بعض اللغات سبباً في تقارب بعض الجذور اللغوية أو تقارب صوت بعض المفردات فيها.

وأيضاً: مسألة تأثير اللغات بعضها على البعض الآخر وإفادة إحداها من الأخرى أمر وارد جداً بل وواقع، بحكم الاختلاط والاحتكاك بين المتحدثين، وهذا ما يحصل عادة مع اللغات التي يتجاور أهلها جغرافياً.

لذا فمن غير المنطقي جعل الشبه في مفردات بعض اللغات (في النطق أو في الجذر اللغوي) سبباً ودليلاً على تفضيل لغة ما على أخرى بحجة أنّ بعض مفردات اللغة المفضولة (بنظرهم) تشبه في نطقها مفردات لغة أخرى فتكون هي الأفضل (كما أتعب البعض نفسه بإرجاع بعض مفردات اللغة الإنجليزية إلى أصل عربي ومن ثمّ عمّم قاعدة "أنّ العربية هي أصل اللغات"، وهو أمر فعله أيضاً بعض الناطقين باللغة العبرية واعتبرها أصل اللغات)، فمثل هذا الفعل في الحقيقة عبث وجهد لا قيمة علمية حقيقية له؛ لأنه ببساطة يمكن أن يقال بأنّ اللغتين كلتيهما (أي لغتين يتم التفاضل بينهما) لم تكونا هما الموجودتان بصورتهما الحالية سابقاً، وإنما أقصى ما يقال إنّ الموجود (في حال ثبوت التقارب بينهما) هو السلف المشترك الذي انحدرا منه، وهو - أي السلف المشترك - لا هذه ولا تلك بعينها.

---

١. انظر:
https://bit.ly/٢TxurQQ

إلا أن يقال: إن اللغة العربية أقدم من الإنجليزية زماناً، فيكون وجود الشبه في بعض المفردات سبباً في أفضلية العربية عليها، لكنه استدلال غير علمي أيضاً؛ لأن التقدم الزماني للغة ما (في حال القطع به) ليس مقياساً للتفضيل بقدر ما هو كاشف عن تأثر اللغة المتأخرة بالمتقدمة عليها و إفادتها منها في بعض المفردات أو الجذور، وهو أمر يحصل بين اللغات عادة خصوصاً المتجاورة جغرافياً كما قلنا، وواضح أنّ مجرد السبق التاريخي بحد ذاته ليس دليلاً قطعياً على الأفضلية، وإلا لكانت اللغة السومرية والبابلية والمصرية القديمة أفضل اللغات على الإطلاق؛ لأنها أسبق زماناً من غيرها من لغات العالم المعروفة أجمع، ومع هذا فعمرها يعد حديثاً قياساً بعمر اللغة نفسه.

يقول أنيس فريحة عنها: (ولكن الواقع أنّ هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة، بل حديثة نسبة إلى عمر اللغة) [١].

وأمر مهم آخر، هو: ما هو المعيار الحقيقي للتفاضل بين اللغات، وهل حسمت علوم اللغة القديمة أو الحديثة هذا الأمر؟ هل حددت مراكز البحث في جامعات العالم العريقة في بحوثها ودراساتها الرصينة والمعتمدة ميزان التفاضل بين اللغات؟!

حقيقة لا شيء يعتمد عليه في ذلك مطلقاً، سوى بعض الظنون والآراء التي يقدمها أبناء كل لغة انتصاراً للغتهم، وهو منطق أقرب إلى الجهل والتعصب والتباهي منه إلى المنطق العلمي وبيان الحقائق العلمية.

٦.٧- هل اللغة العربية أفضل اللغات؟

يقول الزمخشري في فاتحة كتابه "الفائق في غريب الحديث": (الحمد لله الذي فتق لسان الذبيح بالعربية المبينة والخطاب الفصيح، وتولاه بأثرة التقدم في النطق باللغة التي هي أفصح اللغات) [٢].

١. أنيس فريحة، نظريات في اللغة: ٢٢.
٢. الزمخشري، الفائق في غريب الحديث: ١ / ٩.

وبالرغم من أنّ البحوث المتقدمة كانت كافية - بحسب ما أعتقد - في إجابة كلام الزمخشري وسؤال البحث عموماً، لكن أهمية المسألة واعتماد القائلين بالإعجاز اللفظي للقرآن الكريم عليها، فرض علينا زيادة الاهتمام بها وطرحها بمزيد من النقاش.

بحسب قاموس لغات العالم، فإنّ في عالمنا اليوم ما يقرب من ٧٠٠٠ لغة حيّة، منها بحدود ٢٥٠٠ لغة في طور الانقراض [١]، وأغلب علماء اللغة يعتقدون بوجود ما يفوق على ٥٠٠٠ لغة حول العالم، وأنّ العدد - بحسبهم - قابل للانخفاض إلى النصف خلال قرن من الزمن من الآن. حازت ستة منها اعتراف الأمم المتحدة بها رسمياً، وهي: الإنجليزية والعربية والصينية والإسبانية والفرنسية والروسية. وتعد الإنجليزية أكثرها انتشاراً بنسبة متحدثين بلغت ٢٥ % من مجموع سكان العالم، في حين احتلت اللغة العربية المرتبة الرابعة عالمياً بنسبة متحدثين بلغت ٦,٦ % [٢].

كما هو معلوم، فإنّ اللغة العربية تنتمي في تصنيفها العلمي الحديث إلى عائلة اللغات السامية، باعتبار أنّ منطقة جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا (منطقة نفوذ الساميين) تشكل منطقة جغرافية واحدة. ومن لغاتها المنطوقة اليوم - إضافة للعربية - العبرية والآرامية. لكن بماذا تتميّز اللغة العربية عن غيرها من اللغات بنحوٍ يوفر الأرضية المناسبة لتعقّل توفر الإعجاز اللغوي فيها كوجه لإعجاز القرآن (كما يدّعيه علماء المسلمين) دون غيرها من اللغات؟

قد يقال: إنّ اللغة العربية هل الأكمل بين اللغات، وإنكار ذلك - وبتبعه إنكار كون إعجاز القران لغوياً - يعني إنكاراً لكمال مادي؟

يجيب السيد أحمد الحسن على هذا السؤال، فيقول: (الكمال المادي لا إشكال فيه، ولكن أين هو الدليل القطعي على أنّ اللغة العربية هي الأكمل من بين اللغات الأرضية جميعها، وما هي ضابطة قياس كمال اللغة، ولماذا؟ مع العلم أنّ اللغة العربية

---

١. الانقراض لا يمكن تفسيره بشكل معقول بغير تطور اللغة وخضوعها لآليات التطور العامة بما في ذلك آلية البقاء للأقوى في حالة حصول المنافسة والتزاحم.

٢. المعلومات متاحة على:
https://bit.ly/٢WUGmu + ٢https://bit.ly/٢TxQtmh

قطعاً ليست الأكمل الآن؛ لأنها مفتقدة لكثير من الكلمات العلمية وغيرها التي طرأت منذ أكثر من ألف عام) [١].

هذا يحتّم علينا عرض ما قيل من وجوه في أفضلية اللغة العربية على غيرها، ونرى مدى إمكانية صمود مثل هذا الطرح أمام النقاش العلمي:

١- قيل: إنّ اللغة العربية أوسع اللغات وأكثرها غنىً من حيث الجذور اللغوية، ففيها ما يزيد على ١٦٠٠٠ جذر لغوي. وهو رقم يفوق عدد جذور سائر اللغات بما فيها اللغة الصينية التي يبلغ عدد حروفها ٢٥٠٠ حرف. وكذلك من حيث الاشتقاق والتركيب فمثلاً «Tall» بالإنكليزية تعني فقط طويل، ولكن في العربية لها مشتقات كثيرة مثل: "طال يطول وطائل وطائلة، إلخ" [٢].

٢- وقيل أيضاً: إنّ وجه تميزها سعة مفرداتها، ووجود المرادفات فيها، وكذلك جودة تراكيبها الذي يمكن ملاحظته في مثل التخفيف (اعتماد اللغة العربية على الأصول الثلاثية ثم الرباعية فالخماسية)، والإيجاز (الإتيان بأسمى المعاني في أوجز الألفاظ) ونحو ذلك.

والجواب على مثل هذا الطرح:

أولاً: لنفترض - تنزّلاً - أنّ اللغة العربية غنية فعلاً وتتميز على غيرها من هذه الجهات، لكن من أين لعلماء المسلمين أن يثبتوا أنّ ذلك التميز صالح في جعلها تتوفر على "إعجاز لغوي" لا يتوفر في سواها، كما هم يزعمون؟ خصوصاً وأنّ غرض اللغة حاصل للجميع (بجميع اللغات) على حد سواء، ولا ميزة لأحد على أحد من جهة حصول التفاهم والتواصل بين أهل كل لغة فيما بينهم، وهو الغرض من وجود اللغة أصلاً كما عرفنا.

---

١. حوار مباشر مع السيد أحمد الحسن.

٢. هذان الأمران (كثرة الجذور + سعة الاشتقاق والتركيب) يشيع ذكرهما على لسان الكثيرين، وأصل المقولة تعود إلى ما ذكرته د. تحية عبد العزيز إسماعيل في كتابها "اللغة العربية أصل اللغات" باللغة الإنجليزية، انظر:
https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=٨٣٩٥

فمثلاً: لفظ "أريد ماء"، الذي يقابله باللغة الفارسية: "آب ميخواهم" وفي الإنجليزية: "I Want Water"، واضح أنّ الثلاثة - أعني العربي والفارسي والإنجليزي - يتحصلون على نفس المعنى ويفهمون نفس الفهم عند سماع كل منهم الكلام بلغته، ولا يُنقص الأخيرين عدم توفر سعة المفردات والمرادفات وجودة التركيب ... الخ في لغة كل منهما - قياساً بالعربية - أي شيء يُذكر من هذه الناحية.

وثانياً: إنّ علم اللغة الحديث يرفض المفاضلة بين اللغات من الأصل، وليس في قاموسه شيء اسمه "لغة جيدة أو رديئة" بعد أن كانت جميع اللغات تؤدي غرضها وغايتها، ولا يرى للمفاضلة أي مبرر من الأساس، فهو لا يرى للتمايز بـ (التراكيب، والمقدرة على التعبير، وأصوات اللغة، وكثرة المفردات والمرادفات ... الخ) في اللغات أي مزية، وقد تقدم عرض موقف بعض علماء اللغة في هذه المسألة.

يقول أنيس فريحة: (إنّ علماء اللغة اليوم لا يجدون أنّ التركيب اللغوي يعكس مزايا خاصة)، ويقول أيضاً: (لقد أثبت علم اللغة الحديث أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع إنساني. وهي ظاهرة إنسانية لا علاقة لها بالآلهة ولم تهبط من عل، بل نشأت من أسفل، وتطورت بتطور الإنسان ذاته، ونمت بنمو حضارته. وليس هناك مبرر للمفاضلة بين لغة وأخرى، كأن يقول أحدنا إنّ في الألمانية عبقرية لا نجدها في الأفرنسية وفي الافرنسية مقدرة على التعبير لا نجدها في التركية، لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع. وليست القضية قضية لغة أفضل من لغة بل قضية حضارة أرقى من حضارة وحياة أغنى من حياة.

وكذلك لا مفاضلة في أصوات اللغة كأن يقول أحدنا إنّ في الإيطالية أصواتاً أعذب موسيقى من أصوات العربية. ....

ولا مبرر للقول بأن مفردات لغة ما أكثر من مفردات لغة أخرى إذ قد يكون عندنا نحن البيض للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر عنها، بينما نجد الصفر أو الحمر أو السود من البشر لا يشعرون بأن هذه الصورة الذهنية تحتاج إلى لفظة خاصة بل قد يعبرون عنها بطريقة أخرى مخالفة ولكن فعّالة. وقضية المفردات لا تدخل في صميم

اللغة، فنحن نباهي مثلاً أنّ للشيء الواحد عندنا أسماء عديدة، وللفعل الواحد أفعالاً عديدة، ولكن غيرنا يرى في ذلك إسرافاً) [١].

وثالثاً: هل التفضيل بالجهات المشار لها هو تفضيل علمي بنحو قطعي أصلاً؛ بحيث تقرّه الدراسات والبحوث العلمية اللغوية وتؤكده المراكز والجامعات المتخصصة في هذا المجال؟ وإذا كان الحال كذلك فليرشدونا إليها؛ لأننا لم نرَ شيئاً منها خلال تتبعنا وبحثنا عنها، بل وجدنا العكس كما سمعناه قبل قليل.

أما أن يُكتفى بآراء و أقوال أهل كل لغة، فهو مجرد ظنون تدور مدار المباهاة والتعصب البعيد عن المنطق العلمي الرصين، فالعربي يقول عن لغته: "العربية خير اللغات و أفضلها"، وجالينوس يقول: "اليونانية أفضل اللغات"، واليهود يقولون: "العبرية أفضل اللغات لأنها لغة الرب"، والسرياني يقول: "السريانية لغة الحساب في الآخرة ولغة أهل الجنة"، والفارسي يقول: "الفارسية لغة أهل الجنة"، ثم يطرح كل منهم ظنوناً ينتصر بها لرأيه في تفضيل لغته.

وليست مسألة "التفاضل بين اللغات" أمر تنفيه بحوث ودراسات علم اللغة الحديث فحسب، ولكن هو غير ثابت في الدراسات اللغوية القديمة أيضاً.

يقول ابن حزم: (وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات. وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" وقال تعالى: "فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون". فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك، وقد غلط في ذلك جالينوس فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لان سائر اللغات إنما هي تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع. قال علي: وهذا جهل شديد لان كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها، فهي عنده في النصاب الذي ذكره جالينوس ولا فرق. وقد قال قوم: العربية أفضل اللغات لأنه بها كلام الله تعالى. قال علي: وهذا لا معنى له، لان الله عزوجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه. وقال تعالى: "إني إذا لفي ضلال مبين" وقال تعالى: "وإنه لفي زبر

١. أنيس فريحة، نظريات في اللغة: ٣١، ٤٨ - ٤٩.

الأولين" فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه. وقد أنزل التوراة والإنجيل والزبور، وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية، وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية، فتساوت اللغات في هذا تساوياً واحداً) [١].

٣- وقيل: إنّ وجه التفضيل ما تحتويه اللغة العربية من وجوه البلاغة والفصاحة من تشبيه وتمثيل واستعارة وما شابه ذلك.

ويرد عليه - أولاً - ما ورد على سابقيه، أي عدم وجود دليل علمي في تفضيل لغة على أخرى بمثل ذلك بنحو قطعي وثابت علمياً.

وثانياً: إنّ معيار تمييز الفصاحة والبلاغة (للكلمة الواحدة أو الكلام) داخل اللغة العربية نفسها غير ثابت بوضوح، وقد تقدم أنّ المسألة نسبية وذوقية ولا ضابطة علمية دقيقة لتمييزه عن غيره من الكلمة أو الكلام العربي، فما بالك بضابطة تمييزه بين لغة وأخرى!

وثالثاً: من الواضح أنّ أغلب لغات العالم المهمة تتوفر على عناصر التشبيه والتمثيل وما شابه من وجوه الفصاحة، ولنفترض أنها ليست بالحجم والسعة الموجودة في اللغة العربية، لكن هل يكفي ذلك لتفضيل الأخيرة عليها بنحو مطلق؟ وهل يصلح ذلك في ضوء علم اللغة الحديث لأن يكون وجهاً للتفاضل أصلاً؟!

وبالنسبة لموقف علم اللغة الحديث من المفاضلة بين اللغات عرفناه سابقاً، يقول أنيس فريحة: (ليس هناك من لغة لها عبقرية تفوق اللغات الأخرى، وليس هناك من عرق صافٍ خلق لغة خاصة تعكس عقليته، وكل ادّعاء بأنّ هذه اللغة أو تلك أحسن اللغات و أفصح اللغات وأغنى اللغات وأشرف اللغات هو من باب المباهاة. اللغة شيء والحضارة شيء آخر، واللغة شيء والعرق شيء آخر) [٢].

و أيضاً (وهو وجه يصلح للرد على وجوه التفضيل كلها): لما يقال بأفضلية اللغة العربية على غيرها، ما هو المقصود بذلك؟ هل يُقصد بها اللغة العربية في زمن نزول

---

١. ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام: ١ / ٣٢.

٢. أنيس فريحة، نظريات في اللغة: ٣٢.

القرآن أو قبله، أو بعده وصولاً إلى زمننا الحالي؟ أقول ذلك؛ لأن اللغة العربية ليست جامدة ومستقرة على نحو واحد منذ وقت اكتمالها كلغة منفصلة عن سائر اللغات السامية، ولا هي بمعزل عن قانون التطور الذي يهيمن على سائر اللغات بل على عالمنا المادي كله كوناً وأرضاً.

يلخّص الدكتور علي عمار[1] مسيرة تطور اللغة العربية الفصحى بثلاث مراحل:

١- مرحلة لما كانت العربية الفصحى إحدى اللغات السامية.
٢- مرحلة تسيّد العربية الجنوبية على شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، والتي بدأت منذ الألف الثاني ق.م.
٣- مرحلة صيرورة العربية الفصحى لهجة خاصة بعرب الشمال، وتميزها عن العربية الجنوبية في العديد من الخصائص اللغوية والمفردات.

ثم بعد بزوغ نجم قريش واحتكاكها الواسع بمن حولها واضطرارها أحياناً إلى التحدث بألسنة ولهجات من تتعامل معهم في التجارة وغيرها، ازدادت لغة قريش ثراء وتطوراً، وتخيرت منها ما يلائم مزاجها، يقول: (ومن هذا المزيج المتنوع تخيّرت قريش من الأصوات والمفردات والتراكيب ما يلائم مزاجها وذوقها فكانت لغة القرآن الكريم، ولغة الحديث النبوي الشريف، ولغة الشعر الجاهلي وأمثال الجاهلية وحكمها).

وفيما يخص مراحل التطور التي ذكرها في مقاله، فهو تبع فيها ما ذكره الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه "المدخل إلى دراسة النحو العربي".

ما يهمنا: هو أننا لاحظنا أنّ اللغة العربية لم تكن بصورة واحدة منذ نشأتها والتحدث بها، وإنما خضعت للتطور والتغير بمرور الزمن حتى بلغت مرحلة الانفصال بينها وبين العربية الجنوبية وتميزها عنها، وهي في ذلك كسائر اللغات الأخرى فيما يطرأ عليها من تطور وتبدل، وأكيد أنّ الحال نفسه نراه لو عملنا مقارنة بين اللغة العربية في زمن قريش والعربية في أزمنتنا هذه، ويكفي أن نعرف أننا لا نعود إلى الفصحى الآن إلا

١. المقال متاح على:
http://www.alnoor.se/article.asp?id=٣٣٣٢٢٤

حين كتابة مقال علمي أو كتاب وما شابه، فهي تكاد تكون لغة علمية فقط، أما فيما عدا ذلك فإننا نتكلم عربيتنا ولهجتنا التي اعتدنا عليها، والتي لا يجمعها مع العربية الأم في كثير من الأحيان سوى الاسم فقط، وأعتقد أنّ رفض ذلك مجرد مكابرة وعناد لا أكثر، بل إنّ العربية الفصحى في زمننا تختلف (صياغة وأسلوباً ومرونة ومفردات) عن العربية الفصحى في زمن النص بل وما بعده، وعلى سبيل المثال: يمكنك أن تمسك كتاباً ألّف قبل عدة قرون وكتاباً مؤلف في عصرنا الحالي وتلاحظ الفرق الكبير بينهما بنفسك.

بالتالي، فميزان التفاضل بين اللغات لو تنزلنا لإجرائه - وهو غير صحيح طبعاً؛ لأنه أساساً غير متوفر بنحو علمي صحيح، كما أنه مرفوض من قبل علم اللغة الحديث كما عرفنا - فهو لا يكون إلا أمر نسبي في أحسن حالاته بعد عدم ثبات اللغة على خط بياني واحد.

بهذا نكون قد ناقشنا عمدة وجوه التفضيل بنظر القائلين به، وقد ظهر بوضوح عدم كفاية شيء منها، أما بقية ما قيل من وجوه فلا أعتقد أننا بحاجة إلى عرضها ومناقشتها بعد اتضاح حال المهم منها، مثل: ثباتها (وهو أمر غير صحيح بما أوضحناه أخيراً)، أو توفرها على الإعراب وعلم العروض ونحو ذلك وهي - كما ترى - وجوه لم يثبت التفضيل على أساسها بنحو علمي قطعي.

اللهم إلا أن يقال: إنّ وجه تفضيل اللغة العربية هو كونها لغة القرآن الكريم كما رأيت كثيرين يطرحوه في بحوثهم ومقالاتهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فلا يكون وجه التفضيل حينئذٍ أمراً علمياً موضوعياً في حد نفسه ويرجع إلى اللغة نفسها، وإنما سيكون أمراً عرضياً ونسبياً في آن واحد (أعني من يعيرله اهتماماً هو المسلم المؤمن بالله ورسوله والمصدق بكتابه دون غيره). ومن جهة أخرى: من يقول إنّ القرآن يعير لهوية اللغة قيمة واعتبار ذاتي أصلاً؟

أما بالنسبة للآيات التي تبيّن أنّ القرآن نزل بـ "لسان عربي"، فلا دلالة قطعية فيها تؤكد أنها في مقام تفضيل اللغة العربية على غيرها من اللغات، وإنما هي بصدد بيان شيء آخر، يقول السيد أحمد الحسن ضمن حوار مباشر معه:

(أما الآيات - التي ذكرتَ أنها تذكره كقرآن عربي - فلا يوجد تركيز فيها على أنّ هناك فضلاً أو أفضلية للعربية على غيرها، وأغلب الآيات تبيّن أنه نزل بلسان عربي و أنتم عرب فالمفروض تفهمونه بسهولة؛ لأنه نزل بلسانكم.

- "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [يوسف: ٢]: يعني بلغتكم رجاء أن تعقلونه.

- "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ" [الشعراء: ١٩٥]: يعني واضح لكم لأنكم عرب، فهم كانوا المواجهين الأوائل للرسول (صلى الله عليه وآله) وللقرآن.

- وهذه الآية تبيّن أنه لا فرق عند الله أن يكون كتابه بأي لغة، إنما الفرق لدى البشر والناس المتلقين والمواجهين له: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ" [فصلت: ٤٤]: يعني لو كان بلغة أخرى غير العربية لطلب العرب ترجمة له "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" ؟ "أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ"؟!

- "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" [فصلت: ٣]: أي لمن يواجهونه من العرب (المواجهون الأوائل والمتلقون الأوائل)؛ من يطلبون الحق منهم.

- وهذه الآية تبيّن لك أنه لا فرق عند الله سبحانه أن ينزل كتابه أو كتبه بأي لغة، و إنما الفرق عند المتلقي الأول والمتلقين الأوائل أي الرسول والمواجهون له، فلغتهم هي الحاكم على اللغة التي ينزل بها الكتاب؛ لأنهم ولأنه المتلقي الأول والمواجه الأول: "وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ" [الأحقاف: ١٢]: كتاب موسى بلغته ولغة قومه وكتاب محمد بلغته ولغة قومه، فلا يوجد أفضلية لغوية لدى الله سبحانه لا عربية ولا غيرها، بل العوالم الأعلى من هذا العالم الجسماني لا يوجد فيها لغات هذا العالم الجسماني أصلاً، فاللغات أصلاً نتاج تطوري حدث في هذا العالم الجسماني) [1].

١ . نص السؤال والجواب بتمامه سيأتي ذكره في الملحق.

الخلاصة:

اتضح بما تقدم، وقد طال بنا الحديث في نقطة البحث هذه للضرورة، أنّ اللغة نتاج تطوري في عالمنا المادي الذي نعيش فيه، الغرض منها التفاهم والتواصل بين الناس، ولا أفضلية بين اللغات عند الله سبحانه كما أنها - أي الأفضلية - لم تثبت بدليل قطعي بنظر العلوم اللغوية الحديثة والقديمة أيضاً، ومن ثم فلا صحة للقول بإعجاز القرآن من جهة لغوية ولفظية بدعوى أنّ اللغة العربية تستوعب وجه الإعجاز اللفظي دون سواها.

٧. لغة القرآن والعوالم العلوية:

٧.١- هل الله يتكلم بلغة، وهل لغة القرآن كلامه؟

بالرغم من أنّ "اللغة" و"الكلام" لهما نفس (المعنى اللغوي) تقريباً [١]، لكن النصوص الدينية لم تنسب صفة "لغوي" إلى الله سبحانه مثلما وصفته بأنه "متكلم". قال تعالى: "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" [النساء: ١٦٤].

لهذا، ولأن علماء المسلمين اعتقدوا بتوقيفية الصفات جعلوا "الكلام" - دون اللغة - صفة من صفات الله. لكنهم - كعادتهم - اختلفوا في بيان المراد منها:

فالسلفية المجسّمة تعتقد أنّ كلام الله هو نفسه القرآن بحروفه ومعانيه، فبحسبهم لا كلام بلا حروف ومعاني، يقول ابن باز: (... فالقرآن كلام الله حروف ومعاني جميعاً، ولا يكون كلام إلا بحروف ومعاني، الكلام حروف ومعاني من حيث هو، فكلام الله حروف ومعاني نزل به جبرائيل على النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام) [٢].

فهم - من حيث الحقيقة واللب - يعتقدون بأنّ الله يتكلم بلغة مؤلفة من كلمات (ألفاظ وحروف) ومعاني، غاية ما في الأمر أنهم لا يصفونه بأنه "لغوي" كما يصفونه بأنه "متكلم"؛ لأن مثل ذلك لم يرد في نص ديني لا أكثر ولا أقل.

وللإنصاف أقول: إنّ القول بالإعجاز اللغوي واللفظي للقرآن (عمدة وجوه الإعجاز عند أغلب العلماء) ينسجم مع هذا المعتقد (الباطل كما سيأتي) أكثر من انسجامه مع التفسيرات الأخرى لصفة الكلام كما سنرى الآن.

---

١. قال ابن منظور: "واللُّغة من الأَسماء الناقصة، وأَصلها لُغْوة من لَغا إِذا تكلم" لسان العرب: ١٥ / ٢٥٠. وذكر في معنى الكلام أنه: القول، الأصوات التامة المفيدة، الجمل المتركبة. لسان العرب: ١٢ / ٥٢٣. وقال الزبيدي: "قالَ ابنُ سِيدَه: اللُّغَةُ اللِّسْنُ، وَحَدُّها أَنَّها أَصْوَاتٌ يُعَبِّرُ بِها كلُّ قومٍ عن أَغْراضِهم. وقالَ غيْرُهُ : هو الكَلامُ المُصْطَلَحُ عليه بينَ كلِّ قَبِيلٍ، وهي فُعْلَةٌ مِن لَغَوْت، أي تكلَّمْت" تاج العروس: ١ / ٦٩.

٢. متاح على:
https://bit.ly/٣edVisQ

الأشاعرة من جهتهم، لما رأوا أنّ تفسير "كلام الله" بالحروف يقتضي الحدوث المنزه عنه سبحانه، اعتقدوا بـ "الكلام النفسي"، وهو - عندهم - صفة قديمة قائمة بالذات المقدسة كالعلم والقدرة، كما أنه مغاير للحروف والأصوات، فهذه الأخيرة دالة عليه وحاكية عنه، ومن ثمَّ يكون القرآن - بنظرهم - دال على كلام الله النفسي.

قال الباقلاني: (اعلم أنّ الله متكلم، له كلام عند أهل السنة والجماعة، وأن كلامه قديم وليس بمخلوق، ولا مجعول، ولا محدث، بل كلامه قديم صفة من صفات ذاته، كعلمه وقدرته وإرادته ونحو ذلك من صفات الذات) [١].

يترتب على هذا المعتقد بطبيعة الحال أن لا تكون صياغة ألفاظ القرآن الذي بين أيدينا (بنظمها العربي) صياغة إلهية (أعني من الله مباشرة)، وإنما هي صياغة جبرئيل (عليه السلام) بتعليم الله إياه، وهي تحكي الكلام النفسي الذي يتصف به الله سبحانه بحسب المعتقد الأشعري.

قال الباقلاني: (والنازل على الحقيقة المنتقل من قطر إلى قطر، قول جبرئيل عليه السلام، يدل على هذا قوله تعالى: "فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين" ... وهذا إخبار من الله تعالى بأن النظم العربي الذي هو قراءة كلام الله تعالى قول جبرئيل لا قول شاعر ولا قول كاهن. ... فحصل من هذا أنّ الله تعالى علّم جبرئيل عليه السلام القرآن، دليله قوله تعالى: "الرحمن * علم القرآن" وجبرئيل عليه السلام علّم نبينا صلى الله عليه وسلم، دليله قوله تعالى: "علمه شديد القوى") [٢].

عموماً، رد علماء سائر الفرق الأخرى ومنهم علماء الشيعة على معتقد الأشاعرة بالكلام النفسي، بل اعتبره السيد الخوئي مجرد خيال لا دليل عليه [٣].

١. الباقلاني، الإنصاف: ٦٧.
٢. المصدر السابق: ٩٢ - ٩٣.
٣. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤١٣.

الشيعة والمعتزلة من جهتهم، يعتقدون بأنّ الكلام صفة فعل (لا ذات) حادثة (لا قديمة)، ومعنى كونه سبحانه متكلماً - بنظرهم - هو أنه أوجد الحروف والأصوات في الخارج في مخلوق من مخلوقاته [١].

كذلك، هم يعتقدون بأنّ القرآن الكريم كلام الله، ويربطون بين هذا الاعتقاد وبين الاعتقاد بصفة الكلام التي يتصف بها سبحانه، يقول السيد الخوئي: (لا يشك أحد من المسلمين أن كلام الله الذي أنزله على نبيه الأعظم برهاناً على نبوته ودليلاً لأمته. ولا يشك أحد منهم أن التكلم إحدى صفات الله الثبوتية المعبر عنها بالصفات الجمالية) [٢].

ويقول الطباطبائي بعد ذكر آيات التحدي في القرآن الكريم: (من الواضح البديهي أن هذه التصريحات لا تناسب كون القرآن من كلام الرسول وقد نسب إلى الله تشريفاً بل تثبت قطعاً أنه من كلام الله تعالى لا غير) [٣].

من جهة ثالثة، هم - بنحو غالب كما عرفنا - يرون أنّ إعجاز القرآن يرتكز على جانبه اللغوي بل ويربطون بقاء الإعجاز ببقاء الأمة العربية ومعرفة خصائص لغتها بالذات، يقول السيد الخوئي: (وأما القرآن فهو معجزة باقية أبدية ببقاء الأمة العربية، بل ببقاء من يعرف خصائص اللغة العربية، وإن لم يكن عربياً) [٤].

من ثمَّ، ستكون خلاصة الاعتقادات هي:

١- الله يتصف بأنه متكلم، والكلام صفة ثبوتية.
٢- القرآن المعجز كلام الله.
٣- وجه إعجاز القرآن يكمن في لغته العربية.

وإذا كان الله متكلم، والقرآن كلام الله، وإعجازه في لغته، فمعنى ذلك - بكل وضوح - أنه سبحانه يتكلم بلغة، وهو بالضبط ما انتهى إليه السلفيون.

---

١. السبحاني، الإلهيات: ١٩١.
٢. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٠٥.
٣. الطباطبائي، القرآن في الإسلام: ٨١.
٤. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٨٢.

هذه النتيجة الحتمية غير الصحيحة، ولا شك، تكشف عن وجود خلل في إحدى الاعتقادات المذكورة، وواضح أنّ اتصاف الله بالكلام (بغض النظر عن معناه الآن) أمر قطعي؛ لأنه وارد في نصوص قطعية الصدور،

ومثله الأمر الثاني، قال تعالى: "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ" [التوبة: ٦]، فقد وصف القرآن بأنه كلام الله.

و أيضاً: هم يرفضون ما تذهب إليه الأشاعرة من القول بأنّ القرآن (ألفاظه) دال وحاكٍ عن الكلام النفسي، ويصرّ السيد الخوئي على أنّ المقصود بكلام الله هو الكلام اللفظي. قال في الرد عليهم: (إن كلامه منحصر بالكلام اللفظي، وأن القرآن المنزل على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) هو كلامه تعالى بتمام سوره و آياته وكلماته، لا أنه حاكٍ عن كلامه، لوضوح أن ما يحكي القرآن عنه ليس من سنخ الكلام كما سيأتي بيانه. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: أنّ السبب الذي دعا الأشاعرة إلى الالتزام بالكلام النفسي هو تخيل أن التكلم من صفاته الذاتية، ولكن هذا الخيال خاطئ جداً، وذلك لما سيجئ - إن شاء الله تعالى - بصورة واضحة: أن التكلم ليس من الصفات الذاتية، بل هو من الصفات الفعلية) [١].

واضح أنّ المعتقد الثاني لا يتنازلون عنه أيضاً.

يبقى المعتقد الثالث (إعجاز القرآن في لغته)، فهم إن أصرّوا على الاعتقاد به وعدم التنازل عنه أيضاً، فمقولة "إنّ الله يتكلم بلغة" تلزمهم قطعاً ولا يمكنهم التخلص منها، أو يكون سر الإعجاز شيئاً آخر غير اللغة.

والقول بأنّ الله سبحانه يتكلم بلغة باطل؛ لعدة أسباب:

---

١. الفياض، محاضرات في أصول الفقه، تقرير بحث السيد الخوئي: ٢ / ١٨.

أولاً: لأن اللغة فرضتها حاجة الإنسان، فهي وسيلة للتفاهم والتعلم والتواصل وإنجاز الأغراض كما تقدم، والله سبحانه غني مطلق ومنزه عن الفقر والحاجة، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" [فاطر:١٥].

وثانياً: حاجة الإنسان إلى اللغة باعتبار محدوديته وغياب أغلب الأشياء عنه وعدم حضورها عنده بوجودها، فيحضرها ويعلم بها من خلال التعامل مع رموزها وما يدل عليها من ألفاظ، هكذا هو حالنا في أغلب أمورنا وعلومنا في مجمل حياتنا، وبهذا أدت اللغة غرضها مع الإنسان على أكمل وجه وساهمت في رقيه الحضاري والمعرفي، لكن الله سبحانه لا يغيب عنه شيء، وجميع الأشياء حاضرة عنده، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، قال تعالى: "عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" [سبأ:٣].

وثالثاً: إنّ الإنسان نفسه رغم فقره وحاجته، يستغني عن اللغة أحياناً؛ لانتفاء الغرض منها والحاجة لها أصلاً، بل ويكون علمه - في تلك الحالة - أبلغ بكثير مما تعلمه بواسطة اللغة، كعلم الإنسان بجوعه وألمه مثلاً فهو لا يحتاج إلى توسط لغته، لأن الجوع والألم حضرا عنده وامتلكا كيانه. كذلك يستغني الإنسان عن اللغة عندما يحصل معه إلهام أو يرى رؤى وكشوفات بالملائكة - مثلاً - أو من لا يعرف لسانهم (في الو اقع) أصلاً، لكنه مع هذا يعلم ما شاء الله له أن يعلم بدون توسط لغته المنطوقة أو المكتوبة، بل - أحياناً - لا يمكن مقارنة ما تعلمه في ذلك الحال بما تعلمه بواسطة اللغة من حيث الوضوح والتأثير وغير ذلك. وإذا كان حال الإنسان كذلك في استغنائه عن اللغة في بعض معارفه، فما بالك باللامحدود المطلق والغني المطلق ومن لا يغيب عنه شيء أبداً؟!

ورابعاً: لأن اللغة (المنطوقة والمكتوبة) لا تكون إلا بحروف، فمثلاً في اللغة العربية ٢٨ حرفاً وفي الإنجليزية ٢٦ حرفاً وهكذا في سائر اللغات. ثم تتآلف الحروف لتشكل الكلمات ثم الكلمات لتشكل الجمل، كما هو معلوم. يضاف للغة المنطوقة مسألة الصوت وكيفية حصوله وتحققه في الخارج، وهو أمر تدرجي ولا يحصل دفعة واحدة بداهة، وكل هذه الأمور هي صفات للموجودات الحادثة والممكنة، والله سبحانه منزه عنها بكل تأكيد.

وخامساً: سيتضح في نقطة البحث القادمة أنّ وسائل التعلم والتواصل في العوالم العلوية أرقى وأكمل قياساً بهذا بوسائل التفهيم في العالم الجسماني، وتنسجم تماماً مع رقي وتطور تلك العوالم، وبالتالي فهي في غنىً عن جميع لغاتنا الأرضية، فكيف بالله سبحانه وتعالى؟!!

أعتقد هذا كافٍ لمعرفة أنّ الله منزه عن التكلم بلغة كلغاتنا الأرضية.

ثم إنه من الواضح جداً أنّ سبيل الوحي أغنى أنبياء الله وحججه جميعاً بعلوم ومعارف ما لم تغنينا إياه جميع لغات العالم مجتمعة، بل ويعتبرون هذا السبيل للتعلم الأساس الذي يستندون إليه ولولاه لنفد ما عندهم!

"عن المفضل قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام ذات يوم وكان لا يكنيني قبل ذلك يا أبا عبد الله فقلت لبيك جعلت فداك قال إن لنا في كل ليلة جمعة سرورا قلت زادك الله وما ذاك قال إنه إذا كان ليلة الجمعة وافا رسول الله صلى الله عليه وآله العرش ووافى الأئمة معه وو افينا معهم فلا ترد أرواحنا إلى أبداننا إلا بعلم مستفاد ولولا ذلك لنفد ما عندنا" [1].

نعم، احتاج الأنبياء وحجج الله عموماً إلى اللغة في إيصال ما عرفوه من الله (من خلال وحيه لهم) وإيصاله للبشر؛ لأنها - أي اللغة - السبيل المتيسر للتعلم والمعرفة والتفهيم بالنسبة إلى أغلب الناس في هذا العالم المادي.

فاللغة عموماً - ومنها لغة القرآن أو أي كتاب إلهي مقدس - أمر فرضه طبيعة المتلّقين والمواجهين للرسول الإلهي لا غير، والا فلا فرق - بالنسبة له سبحانه - أن يكون كتابه بأي لغة كانت، بل إنّ حقيقة القرآن (والكتب المقدسة عموماً، كما سيأتي) ليست هذه الألفاظ المقروءة كما توهم أغلب علماء المسلمين.

---

١. الصفار، بصائر الدرجات: ١٥٠.

يقول السيد أحمد الحسن تعقيباً على الآية "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ"، وقد تقدم نقله: (وهذه الآية تبيّن أنه لا فرق عند الله أن يكون كتابه بأي لغة، إنما الفرق لدى البشر والناس المتلقين والمواجهين له).

٢,٧- لغة العوالم العلوية:

تعدد العوالم، ليس فقط حقيقة ذكرتها النصوص الدينية، ولكنها أيضاً حقيقة علمية أكدتها نظريات الفيزياء الحديثة كنظرية الأكوان المتعددة [١].

المؤيدون لنظرية "الأكوان المتعددة" عادة ما يعتبرونها أكوان متوازية ويشبّهونها بفقاعات متجاورة وبمستوى وجودي واحد. لكن لا يوجد مبرر علمي يدعو لذلك، كما يؤكد السيد أحمد الحسن هذه الحقيقة في الفصل السادس من كتابه "وهم الإلحاد".

علمياً، نظرية تعدد العوالم تمكّنت من معالجة بعض المشكلات الفيزيائية المستعصية بحسب الطرح الكلاسيكي لميكانيكا الكم [٢]، وعلى سبيل المثال: تفسير ظاهرة الترابط الكمومي (أو التأثير الشبحي عن بُعد كما يسميها آينشتاين)، وهي ظاهرة فيزيائية تحصل لجسيمين (إلكترونين مثلاً) كانا متشابكين كمومياً سابقاً ثم تم فصلهما، فإنك بمجرد أن تعرف خاصية فيزيائية (كتحديد الموضع أو اللف المغزلي "Spin" [٣]) لأحدهما

---

١. بعد اكتشاف ميكانيك الكم مطلع القرن العشرين، واجهت العلماء مشاكل في تفسير بعض الظواهر لم يتمكنوا من حلها بشكل علمي ومنطقي وأدت ببعضهم إلى إنكار مبدأ السببية البديهي، إلى أن تمكن هيو ايفرت Hugh Everett من تقديم الحل في أطروحته المقدمة إلى جامعة برنستون الأمريكية، نشرت الرسالة عام ١٩٥٧ م، ولم يدر في فكر ايفرت ما كان يخبأه الزمن لنظريته ونجوعها في حل أكثر من مشكلة فيزيائية حتى شهد عام ٢٠٠٧ م الاحتفاء بالذكرى الخمسين لها على غلاف مجلة Nature العلمية العالمية.

٢. الكم: وصف لأصغر كمية ووحدة ممكنة (منفصلة لا متصلة) من الطاقة أو المادة، وميكانيكا الكم يقصد به: مجموعة نظريات فيزيائية تختص بدراسة سلوك وخواص المادة والطاقة في المستوى الذري وما دون الذري (عالم الذرة والجسيمات الأولية للمادة). وقد اعتمدت جميع تلك النظريات - بشكل عام - على "نظرية الكم" للفيزيائي الألماني ماكس بلانك Max Planck، التي أحدثت ثورة عملاقة في عالم الفيزياء وغيّرت ملامحه بشكل كبير. بل يمكن عدها - مع نظرية النسبية العامة لأينشتاين - حجر الأساس في البناء الفيزيائي الحديث.

٣. اللف المغزلي: دوران الجسيم حول نفسه، ويمكن تشبيه المسألة بدوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس، وكذلك الجسيم الأولي - كالإلكترون - فهو يدور حول نفسه (دوران مغزلي = Spin) ويدور حول نواة الذرة. انظر: بر ايان غرين، الكون الأنيق: ١٩٣ - ١٩٤.

تعرفها في الآخر آنياً بغض النظر عن المسافة التي تفصل بينهما، أي إنّ الزمن معدوم وقيمته (صفر) في تلك الحالة.

هذا، لكن المعروف بحسب نظرية النسبية الخاصة لأينشتاين أن لا شيء في الكون المادي بإمكانه أن يتجاوز سرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية تقريباً)، فكيف يمكن التوفيق بين قبول النسبية الخاصة المبرهن عليها علمياً وبين الترابط الكمومي المبرهن عليه كذلك بل والموثق صورياً أيضاً، حيث نشرت مجلة Science Advances في عام ٢٠١٩ م تحت عنوان "Imaging Bell-type nonlocal behavior" ورقة بحثية لفريق فيزيائي من جامعة غلاسكو Glasgow الاسكتلندية بقيادة د. بول أنطوان مورو كشفت تمكنهم من التقاط صورة مرئية لظاهرة الترابط الكمومي، وهو أمر يحصل لأول مرة [١]، كيف نوفق بين الأمرين؟

هنا تبرز أهمية نظرية الأكوان والعوالم المتعددة لحل هذه المشكلة بافتراض (أنّ المعلومات التي تنتقل بين الجسيمين تنتقل بينهما في كون آخر، لهما فيه وجود شبحي، وهذا الكون الآخر يسمح بأن تنتقل الأشياء فيه بسرعة أكبر من سرعة الضوء. .... وهذا يعني ولا شك - إن كانت النسبية الخاصة صحيحة - أنّ هذه المعلومات تنتقل في كون آخر تسمح قوانينه بهذه الأمور المستحيلة في كوننا، وهذا الكون الآخر لابد أنه مؤثر في كوننا ومتصل به وأن للأشياء التي في كوننا وجوداً شبحياً في ذلك الكون بحيث إنها يمكن أن تتواصل فيه وتنتقل المعلومات فيما بينها بسرعة لا متناهية، أو ربما نكون نحن والموجودات في هذا الكون أشباحاً لحقائق أرقى موجودة في كون أرقى من كوننا) [٢].

و أيضاً: نظرية الأكوان المتعددة استطاعت أن تفسر قوة الجاذبية بافتراض ترشح "كرافيتون" الجاذبية من كون آخر مجاور لكوننا، وغيرها من المشكلات التي يمكن الاطلاع عليها في كتب الفيزياء الحديثة.

---

١. المقال متاح على:

https://phys.org/news/٢٠١٩-٠٧-scientists-unveil-first-ever-image-quantum.html

٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٤٧١ - ٤٧٢.

ما يهمني الآن أن نعرف: أنّ معطيات النظريات العلمية الحديثة تؤكد وجود عوالم أرقى من عالمنا الذي نحن فيه ومؤثرة فيه، ونفس هذه الحقيقة أكدتها النصوص الدينية أيضاً، فكون العوالم العلوية كعالم الأنفس أو الأرواح أو الملائكة خُلقت قبل عالمنا المادي وأنها مؤثرة فيه ورد بصريح الروايات [1]، ولهذا عادة ما تتوسط الملائكة وأرواح الصالحين مثلاً في إيصال مراد الله ورسائله إلى الإنسان في هذا العالم.

وإذا ثبت أنّ العوالم العلوية أرقى من عالمنا، فهذا يعني بوضوح أنّ وسائل التعليم والتواصل فيها أرقى من وسيلة التفاهم والتواصل والتعلم في عالمنا الأرضي أعني اللغة غالباً.

ولأجل توضيح الفكرة لنأخذ هذا المثال التقريبي: بحسب النص الديني، فإنّ حال "اليوم الواحد" في أحد العوالم العلوية يعادل ما مقداره ألف سنة في عالمنا هذا، قال تعالى: "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" [السجدة: ٥]. أي: إنّ اليوم الواحد في عالم علوي = ٣٦٠,٠٠٠ يوم من أيامنا التي نعرفها إذا حسبنا السنة = ٣٦٠ يوماً، أي إنّ النسبة بين العالمين من هذه الجهة هي: [١ إلى ٣٦٠,٠٠٠]، وهذا يعني - إذا ما أردنا أن نحفظ نسبة التفوق المذكورة - أنّ قراءتك لكتاب ما - مثلاً - واستيعابك لما فيه من علوم ومعارف والتي تأخذ منك وقتاً كأن يكون يوم أو عدة أيام في هذا العالم، يمكنك تحصيل نفس تلك العلوم والمعارف وبنحو أدق وأتم في "لحظة" يكاد ينعدم فيها الزمن وتصبح قيمته صفراً إذا قدرلك وكنت من أهل العالم العلوي، تماماً كما حصل في ظاهرة الترابط الكمومي!

---

١. منها: قول الإمام علي (عليه السلام): "إن الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام" الكليني، الكافي: ١ / ٤٣٨. وعن الصادق (عليه السلام): "إن الله تبارك وتعالى أخذ ميثاق العباد وهم أظلة قبل الميلاد فما تعارف من الأرواح ائتلف وما تناكر منها اختلف" ابن سليمان الحلي، مختصر بصائر الدرجات: ٢١٤، وقريب منه رواه البخاري في صحيحه: ٤ / ١٠٤. واضح في الحديث أنّ عالم الأرواح يؤثر على هذا العالم، فما تعارف منها هناك ائتلف هنا وما تناكر منها هناك اختلف هنا. وتعقيباً على قوله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم"، قال ابن عبد البر: (قال إسحاق أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد فاستنطقهم وأشهدهم على أنفسهم) الاستذكار: ٣ / ١٠٧.

هذا، مع أنّ العوالم العلوية ليس فيها زمن أساساً؛ لأنه من لوازم عالمنا الجسماني الذي نعيش فيه كما هو معروف علمياً ودينياً، بل بحسب "نظرية الانفجار العظيم" [١] فإنّ الزمان لم يكن له وجود في لحظة نشوء كوننا المادي هذا، فضلاً عن أن يكون له وجود في عوالم علوية أرقى وأكثر تطوراً وليست بمادية أصلاً.

يقول الفيزيائي البريطاني ستيفن هوكنج: (في الكون المبكر - عندما كان الكون صغيراً بما يكفي لتحكمه كل من النسبية العامة ونظرية الكم - كان هناك فعلياً أربعة أبعاد للمكان ولا واحد للزمن. وهذا يعني أننا عندما نتكلم عن "بداية" الكون، نتجنب الموضوع المهم وهو أننا عند النظر للخلف باتجاه الكون المبكر جداً، فإنّ الزمن كما نعرفه لم يكن موجوداً) [٢].

وعموماً، مسألة كون العوالم العلوية أرقى من عالمنا وفيها قوانين متطورة تناسب رقيها وتطورها أمر لا ينبغي التشكيك فيه بعد الحقائق والمعطيات التي وفّرها العلم والدين معاً، وبالتالي فوسائل التعليم والتواصل بين أهل تلك العوالم تختلف تماماً عن وسيلة التعليم في عالمنا الذي نحن فيه أعني اللغة، ولهذا قلت سابقاً: إنّ أولياء الله يتحصلون بالوحي (النازل من تلك العوالم) من علم ومعرفة وغير ذلك ما لا نتحصل عليه نحن بلغات العالم كلها. بل ويحصل مثل هذا أيضاً مع أناس عاديين لما يرون الملائكة أو أرواح الصالحين في الرؤى والكشوفات، أو الإلهام والإلقاء في الروع وما شابه ذلك.

ثم إذا كانت توجد وسائل أخرى - غير اللغة - تؤدي غرض اللغة بنحو أتم وأكمل في عالمنا هذا كما مرّ، فيكون استغناء العوالم العلوية الأرقى عن لغاتنا الأرضية الجسمانية أولى بالبداهة.

---

١. الانفجار العظيم "Big Bang" أو النموذج القياسي نظرية علمية فيزيائية تفسر نشأة الكون من خلال انفجار حصل في مفردة كمومية متناهية في الصغر ثم توسع الكون شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى ما هو عليه اليوم، وقد لاقت في السنين الأخيرة قبولاً واسعاً في المحافل العلمية وتحديداً لدى علماء الفيزياء النظرية والفلك بعد أن صدقت تنبؤاتها وأيدتها الاكتشافات العلمية المستمرة إلى يومنا هذا. يقول غرين برايان: (كان الكون لحظة الانفجار الهائل "Big Bang" قد تفجّر عن كتلة ميكروسكوبية إذا ما قورنت بحبة رمل لبدت حبة الرمل عظيمة الحجم) الكون الأنيق: ١٨، ترجمة: د. فتح الله الشيخ.

٢. هوكنج، التصميم العظيم: ١٦٤، ترجمة: أيمن أحمد عياد.

بهذا يتضح أنّ أحرف لغتنا العربية الـ ٢٨ حرفاً مثلاً (وكذا سائر اللغات) هي من لوازم هذا العالم الأرضي، ومحددة بحدوده ومقيدة بقوانينه وهي مناسبة للإنسان بحسب طبيعته المادية وكثافته الجسمانية. وليس هذا فقط، بل هي أضعف وسائل التفاهم والتواصل والتعلم؛ لأنها بالأساس تناسب عالم الدنيا الذي نحن فيه وهو أبعد العوالم عن الله و أكثرها ظلمة.

لهذا فهي - أي اللغة - تعجز عن وصف نعيم الجنان - مثلاً - لما يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) عنها: "وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" [١]، فهو (صلى الله عليه وآله) لم يكن بصدد المبالغة (وحاشاه) بقدر ما كانت اللغة الأرضية فعلاً عاجزة عن وصف النعيم الأخروي الذي يتطلب إدراكه - على وجه الحقيقة - أن يشاهده الإنسان بنفسه ويعيشه بوجوده، فاللغة مهما تعمّقت في وصفه بأدق الأوصاف لا يكون الحال كما هو عليه حقيقة.

ثم إنّ كتب الله المقدسة (القرآن والإنجيل والتوراة وصحف إبراهيم ونحوها) لما كانت نازلة من عوالم علوية فهي إذن - من حيث الحقيقة هناك - ليست متصفة بأي هوية لغوية ولا منطبعة بأي لغة من لغاتنا الأرضية، فلا هي عربية ولا عبرية ولا سريانية ولا غير ذلك، و إنما هي حقائق علوية يتم التعرف عليها بحسب وسائل التعليم الر اقية التي تناسب تلك العوالم [٢]، لكن بعد انصراف أغلب الناس عن سلوك سبيل الوحي الرحب والتنكّر له، فرض التعرّف عليها في هذا العالم صياغتها وبيانها بلغة ما، وقد أشار السيد أحمد الحسن - في كلامه المتقدم - أنّ المتلقين والمواجهين للرسول الإلهي هم من يفرضون لغة الرسالة الإلهية وكتبها المقدسة لا أنه سبحانه أو وحيه المقدس يفرضها بالأصل ليكون للغة ما - في حد نفسها - اعتبار وقيمة ذاتية وو اقعية.

يترتب على هذا:

١- إنّ من أخلص لله وتقدس وأغناه الله بوحيه، لا يستغني عن التعلم باللغة فحسب، و إنما يمكن أن يكون أعلم الأولين والآخرين مع كونه أمّياً "لا يقرأ ولا يكتب".

---

١. الصدوق، الأمالي: ٢٨١.

٢. سيأتي مزيد من التوضيح لهذا الأمر في الفقرة (٨) من البحث.

٢- لو اختارت الناس - وهي بوسعها ذلك - أن تسلك سلوك ذلك الإنسان المخلص فستقل الحاجة إلى اللغة بشكل كبير في الجوانب المتصلة بالدين والآخرة تحديداً، ولهذا عاتبهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوله تعالى: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ" [الكهف: ١١٠] أي: لماذا يُوحى إليّ ولا يُوحى لكم مع أني بشر مثلكم؟! أما القول بأنه (صلى الله عليه وآله) يمتاز عن سائر البشر بميزة خاصة (كالوحي مثلاً)، فهو طعن بعدالة الله "الإله والرب الواحد"، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٣,٧- الوحي والقرآن المُوحى:

واضح من العنوان أني لا أريد الخوض في تفاصيل الوحي؛ فهو بحث موسع بكل تأكيد، ما أريد فعله هنا هو التعرف على الوحي وارتباطه بالقرآن الموحى، بالنحو الذي تتوضح فيه - بشكل أكبر وتتأكد أكثر - مسألة استبعاد أن تكون اللغة العربية بما تحويه من بلاغة وفصاحة هي الوجه في إعجازه.

لا شك أنّ القرآن كتاب إلهي مُوحى إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: "وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا" [الشورى: ٥٢].

وكون الوحي = كلام الله أمر أوضحه أمير المؤمنين (عليه السلام) في جواب السائل المشكك بالقرآن، حيث قال: (..... فأما قوله "ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب" فإنه ما ينبغي لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً وليس بكائن إلا من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، كذلك قال الله تبارك وتعالى علواً كبيراً، قد كان الرسول يوحى إليه من رسل السماء فيبلغ رسل السماء رسل الأرض، وقد كان الكلام بين رسل أهل الأرض وبينه من غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السماء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرئيل هل رأيت ربك فقال جبرئيل: إن ربي لا يرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فمن أين تأخذ الوحي؟ فقال: آخذه من إسرافيل فقال: ومن أين يأخذه إسرافيل؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين، قال: فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ قال: يقذف في قلبه قذفاً، فهذا وحي، وهو كلام الله عز

وجل، وكلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كلم الله به الرسل، ومنه ما قذفه في قلوبهم، ومنه رؤيا يريها الرسل، ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ، فهو كلام الله، فاكتف بما وصفت لك من كلام الله، فإن معنى كلام الله ليس بنحو واحد فإن منه ما يبلغ به رسل السماء رسل الأرض، قال: فرجت عني فرج الله عنك وحللت عني عقدة فعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين) (١).

واضح من النص أنّ الوحي - بشكل عام - على عدة أنحاء:

١- فمنه ما كلّم الله به رسله.
٢- ومنه ما قذفه في قلوبهم.
٣- ومنه رؤيا يُريها الرسل.
٤- ومنه وحي تنزيل يُتلى ويقرأ.

ويجمع الأنحاء كلها صفة واحدة هي أنّ الجميع "كلام الله".

لابد أن نعرف - أيضاً - أنّ الوحي لا يختص بالأنبياء فقط، وإنما يشمل عموم الخلق، فالله سبحانه أوحى إلى النحل، قال تعالى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" [النحل: ٦٨]، وأوحى إلى الملائكة، قال تعالى: "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا" [الأنفال: ١٣]، وأوحى إلى أم موسى وهي ليست من الأنبياء، قال تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ" [القصص: ٧].

يقول الشيخ المفيد: (وقد يكون ارتباط إنسان مع الله (تعالى) بالوحي أو بنزول الملك لا بعنوان أن يكون نبياً ينبأ عن الله (تعالى) أو رسولاً وسفيراً بينه وبين خلقه بل لتسديده في نفسه أو ليلتذ بمناجاة ربه لأنه يحبهم ويحبونه، أو يعلمه (تعالى) وظائفه الشخصية وإن كانت وظيفته تكميل دين نبيه وحفظ الأمة عن الضلال) (٢).

---

١. الصدوق، التوحيد: ٢٦٤.
٢. المفيد، أوائل المقالات: ٢٨٩.

نعم، ما يختص به الأنبياء هو الوحي الرسالي والتبليغي، أي تبليغ رسالة إلهية إلى العباد والمكلفين.

و أيضاً: الرؤيا الصادقة من الوحي، لذلك عدّها رسول الله (صلى الله عليه وآله) "جزءاً من سبعين جزءاً من النبوة"، أو أنّ "رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" [(١)]، وقد تواتر هذا المعنى في كتب المسلمين. ولأن الرؤيا من الوحي والوحي كلام الله وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) رؤيا المؤمن بأنها كلام الله، قال: (رؤيا المؤمن تجري مجرى كلام تكلم به الرب عنده) [(٢)].

أما بالنسبة للوحي عند علماء المسلمين، فهو - كما قالوا - إعلام في خفاء أو الإشارة السريعة التي قد تحصل بكتابة أو رسالة أو الهام ونحو ذلك.

قال الراغب الأصفهاني: (وحى: أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحى وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، ..... ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحى وذلك أضرب حسبما دل عليه قوله "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً - إلى قوله - بإذنه ما يشاء" وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي في صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاء في الروع كما ذكر عليه الصلاة والسلام "إن روح القدس نفث في روعي"، وإما بإلهام نحو "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه" وإما بتسخير نحو قوله "وأوحى ربك إلى النحل" أو بمنام كما قال عليه الصلاة والسلام "انقطع الوحي وبقيت المبشرات رؤيا المؤمن" .....) [(٣)].

ما يهمنا من أقسام الوحي التي ذكرها العلماء - بحسب موضوع بحثنا - هو "الكلمة الإلهية" التي يلقها الله سبحانه إلى أنبيائه وأوليائه؛ لأنّ هذا المعنى يلتقي مع النص الديني بشكل واضح، بل يمكننا أن نقول: إنّ كل الأقسام التي ذكروها للوحي يجمعها

---

١. انظر: الصدوق، الأمالي: ١٢١؛ البخاري، صحيح البخاري: ٨ / ٦٩.
٢. الكراجكي، كنز الفوائد: ٢١٢. ورواه ابن تيمية عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت، انظر: مجموع الفتاوى: ٦ / ١٨٠.
٣. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ٥١٥ - ٥١٦.

أيضاً صفة "كلام الله". فالإشارة السريعة والكتابة والرسالة والإلهام وما يُلقى في الروع من قبل الملك أو الرسول والتسخير والرؤيا كلها كلام الله، لكن لا بمعنى الكلام بلغة (اللغة التي نعرفها والمؤلفة من حروف وكلمات وأصوات)؛ لأن الله سبحانه منزّه عن أن يتكلم بلغة كهذه، فهي تعبّر عن نقص وحاجة وتتصف بصفات الحوادث كما تقدم بيانه، وإنما معنى أنها "كلام الله" هو أنّ الله سبحانه يملأ صفحة وجود المخلوق (الإنسان والملك والجن وحتى النحل وسائر المخلوقات) بما يريد ويبلغه ويعلمه بما يريد من خلال إثارة ما يحتويه وجود المخلوق وما يختزنه من دفائن في وجوده وكيانه توصله بالنتيجة إلى معرفة مراد الله.

فالله سبحانه يتكلّم مع الملائكة والإنسان بوحيه لهم بأن يملأ صفحة وجود كل منهم وينقش في روحه ما يريد سبحانه، بنحو يستوعب كل منهم رسالة الله له ومراده من وحيه، وكذا الحال بالنسبة للجن والنحل وسائر المخلوقات، كلٌّ بحسبه. لهذا كانت "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق".

ولما أقول إنّ الله يتكلم مع الإنسان بوحيه لا أعني بالضرورة أن يكون كلامه ووحيه له بشكل مباشر، وإنما قد يكون - وهو الغالب - من خلال توسط سلسلة من رسل الله "الملائكة مثلاً" يتنزل وحي الله من خلالها حتى يصل إلى الإنسان.

"عن أبي جعفر عليه السلام في قوله "ذو العرش المجيد" فهو الله الكريم المجيد وقال علي ابن إبراهيم في قوله "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ" قال اللوح المحفوظ له طرفان طرف على يمين العرش وطرف على جبهة إسرافيل، فإذا تكلم الرب جل ذكره بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل فينظر في اللوح فيوحى بما في اللوح إلى جبرئيل عليه السلام" [١].

١. القمي، تفسير القمي: ٢ / ٤١٥. وروى علي بن إبراهيم بسنده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال جبرئيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في وصف إسرافيل: هذا حاجب الرب و أقرب خلق الله منه، واللوح بين عينيه من ياقوتة حمراء، فإذا تكلم الرب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللوح جبينه فنظر فيه، ثم ألقى إلينا نسعى به في السماوات والأرض إنه لأدنى خلق الرحمان منه وبينه وبينه تسعون حجاباً من نور، يقطع دونها الأبصار ما يعد ولا يوصف، وإني لأقرب الخلق منه، وبيني وبينه مسيرة ألف عام" تفسير القمي: ٢ / ٢٨.

قال الشيخ الصدوق رحمه الله في "باب الاعتقاد في كيفية نزول الوحي من عند الله بالكتب في الأمر والنهي": (اعتقادنا في ذلك أن بين عيني إسر افيل لوحاً، فإذا أراد الله تعالى أن يتكلم بالوحي ضرب اللوح جبين إسر افيل، فينظر فيه فيقرأ ما فيه، فيلقيه إلى ميكائيل، ويلقيه ميكائيل إلى جبر ائيل، فيلقيه جبرئيل إلى الأنبياء. وأما الغشوة التي كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنها كانت تكون عند مخاطبة الله إياه حتى يثقل ويعرق) [١].

كلام الله وحيه، ووحيه سبحانه ليس بلغة. لهذا وصف حجج الله (صلوات الله عليهم) الوحي ومنه وحي القرآن بـ "وقع الحديد على الصفا [٢]" أو "جر السلسلة على الصفا" أو "صلصلة ورنين الجرس":

(عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: "حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير" وذلك أن أهل السماوات لم يسمعوا وحياً فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمد فلما بعث الله جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله فسمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا، فصعق أهل السماوات فلما فرغ من الوحي انحدر جبرئيل كلما مر بأهل سماء فزع عن قلوبهم يقول كشف عن قلوبهم فقال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير) [٣].

(الحرث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني قد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) [٤].

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم

---

١. الصدوق، الاعتقادات: ٨١.
٢. الصفا: جمع صفاة، وهي الصخرة والحجر الصلد.
٣. القمي، تفسير القمي: ٢ / ٢٠٢.
٤. البخاري، صحيح البخاري: ١ / ٢ - ٣.

جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم. قال: فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق، الحق) [١].

كلام الله وحيه، ووحيه سبحانه ليس بلغة ولا منطبعاً بهوية لغوية معينة من اللغات الأرضية، لهذا كانت الجن قبل بعث الرسول تصعد على أبواب السماء لتسترق سماع الوحي، لكنها بعد بعث رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) فوجئت بالمنع ووضع الرصد:

(عن ابن عباس قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً. فأما الكلمة فتكون حقاً وأما ما زادوه فيكون باطلاً. فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلى بين جليلين أراه قال بمكة فلقفوه فأخبروه فقال هذا الحدث الذي حدث في الأرض) [٢].

كلام الله وحيه، ووحيه ليس بلغة، لهذا احتاج بيان معناه للناس إلى ترجمان يقوم بهذه المهمة الكبرى، فكان خلفاء الله، ومن راجع النصوص الدينية يجد أنّ واحدة من صفات محمد وآل محمد (صلوات الله عليهم) أنهم "تراجمة وحي الله":

(عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: نحن خزان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض) [٣].

فليست لغة الوحي عربية ولا غيرها، وإلا فلو كان الوحي بلغة الناس لكانوا (عليهم السلام) مجرد وسائط في نقل الوحي لهم، أو لكانوا شارحين ومبينين له في حال صعوبة ألفاظه في أحسن الأحوال، ولما صح أبداً وصفهم بـ "تراجمة الوحي"؛ لأن وصف المترجم لا يطلق إلا على من يبين المراد غير المعروف لأهل لغة معينة بسبب وروده بلغة أخرى غير

---

١. السجستاني، سنن أبي داود: ٢ / ٤٢١.
٢. الترمذي، سنن الترمذي: ٥ / ١٠٠.
٣. الكليني، الكافي: ١ / ١٩٢.

لغتهم. ومن ثمَّ، فلو كان للوحي لغة فهي ليست كلغات أهل الأرض، لغة يعرفها أهلها "صفوة الخلق" المخاطبون بها، لأن هؤلاء ليسوا كغيرهم من الناس الذين ملأت الغفلة قلوبهم وألهتهم الدنيا، هؤلاء الصفوة بسبب إخلاصهم و انشغالهم بالله عن سواه، أبقوا على سبيل التواصل مع العوالم العلوية فكانت قلوبهم مهبط وحي الله فيعلموا مراده ثم يبينوه للناس فكانوا هم الهداة، ولهذا قرنهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقرآن ووعد بأنّ المتمسك بهما لن يضل أبداً.

كلام الله وحيه، ووحيه ليس بلغة أرضية، ولهذا كان الوحي واحداً، والفرق يكمن فقط في المتلقي له، فالمرسِل الموحي بالأصل واحد وهو الله سبحانه، وسلسلة وسائط الوحي واحدة ولم تتغير أيضاً، فجبرئيل - مثلاً - الذي كان يهبط على موسى وعيسى (عليهما السلام) هو نفسه الذي هبط على محمد (صلى الله عليه وآله)، فلم يبقَ في انطباع وحي الله بلغة موسى في التوراة مرة وبلغة عيسى في الإنجيل أخرى وبلغة محمد في القرآن ثالثة إلا أن يكون سببه هو المتلقي للوحي لا غير، كما تقدمت الإشارة له في كلام السيد أحمد الحسن، وأيضاً سيأتي مزيد من التوضيح لحقيقة الكتب المقدسة ووحدتها بالأصل في البحث القادم.

ولو أردت تقريب الفكرة أكثر بمثال حسي من عالمنا:

لنفترض أنّ فريقين "A" و "B" يتألف كل منهما من ثلاثة مر اقبين (عربي، فارسي، إنجليزي) أحد الفريقين في الأرض والآخر في الفضاء، يتم تبادل المعلومات بينهما من خلال رنين وذبذبات معينة يتمكن الطرفان من حل رموزها وفكها بواسطة شفرة الحل المتفق عليها بينهما، فلما تصل حزمة رنين مرسلة من أحد الفريقين إلى الآخر مؤلفة مثلاً من: [٣ رنين متواصل - ثم ١ - ثم ٣] أي: ٣١٣، وكان معنى هذا الرمز في الشفرة: "نجاح المهمة"، فالعربي سيفهم الرسالة بلغته العربية: "نجاح المهمة"، والفارسي يفهمها بلغته الفارسية: "ماموريت انجام شد"، والإنجليزي يفهمها بلغته الإنجليزية: " mission accomplished". لاحظنا في هذا المثال أنه بالرغم من أنّ الرسالة واحدة في حقيقتها والرنين واحد لم يتغير لكن اختلاف حال المتلقي للرسالة أدّى إلى تعدد صياغتها بحسب لغة كلٍّ منهم ومحيطه الذي نشأ فيه.

وبلغة المثال أعلاه: فإنّ من يقول بالإعجاز اللغوي للقرآن الموحى، تماماً كمن يقول إنّ في إشارة الرقم (٣١٣) لـ "نجاح المهمة" باللغة العربية إعجاز يختلف عن الإشارة التي حققها باللغة الفارسية والإنجليزية مع أن نفس الغرض تحقق في الجميع بنحو واحد تماماً، والتفضيل في هكذا حالة لا شك أنه ترجيح بلا مرجح وهو قبيح عقلاً. فلو كان في تلك الرسالة إعجاز فيفترض أن يكون فيها هي بحد ذاتها ويفترض توفره في جميع اللغات الحاكية لها. كذلك الحال بالنسبة إلى القرآن، فإعجازه لابد أن يكون فيه هو كحقيقة ومعاني إلهية موحى بها من عند الله إلى رسوله لا في ألفاظه التي ما كانت لتكون إلا لمناسبة حال المتلقي - والمواجهين الأوائل - للقرآن، وإلا لا فرق عند الله - ولا بالنسبة لسلسلة الوسائط التي يتنزل الوحي من خلالها - أن يظهر الوحي القرآني في هذا العالم بأي لغة كانت، ولهذا فلا مجال لقبول الإعجاز في لغة القرآن العربية لأنها - أي اللغة في حد نفسها - ليست جزءاً من حقيقة القرآن العلوية - كما سيتضح أكثر لاحقاً - ولا هي من مقوّمات الوحي النازل أصلاً كما تبيّن، ولا أنّ اللغة العربية تختلف عن غيرها من اللغات في شيء يستحق التفضيل بالنحو المذكور كما عرفنا سابقاً.

تلخص مما تقدم:

أنّ القرآن اللفظي (الذي بين أيدينا) لا يمكن أن يكون قد تكلّم الله به بشكل مباشر؛ لأن ذلك يعني أنّ الله يتكلم بلغة كلغاتنا الأرضية وهو محال كما عرفنا.

وأيضاً: لا مجال لقبول قول بعض الأشاعرة من أنّ القرآن نزل به جبرئيل بألفاظه، فاللفظ القرآني بنظرهم يعود لجبرئيل (عليه السلام) كما مر؛ لأن الملائكة في (ومن) عالم آخر علوي مختلف عن عالمنا ولا يتعامل بلغاتنا الأرضية.

من ثمَّ، لا يبقى إلا أن يكون الوحي القرآني ينزل به جبرئيل على قلب النبي (صلى الله عليه وآله) على شكل معاني وحقائق إلهية ليملأ بها صفحة وجود الرسول (صلى الله عليه وآله) وينقشها في روحه الطاهرة، ولكي تظهر تلك المعاني والحقائق إلى عالمنا هذا تتشكل في نفس الرسول ما يناسبها من ألفاظ يكتنزها في عقله الشريف بحسب لغته التي تعلمها من محيطه الذي عاش فيه. وهذا لا يؤثر على كون القرآن كتاباً إلهياً واتصافه بأنه "كلام الله"؛ لأن حقيقته ومعناه إلهي كما قلنا، كما أنّ معنى كونه كلام الله

- كما تقدم - هو أنّ الله يملأ بحقيقته ومعناه صفحة وجود المخلوق من خلال الوحي، تماماً كالرؤى التي وصفت بأنها "كلام الله" أيضاً.

يقول السيد أحمد الحسن: (اللفظ القرآني يتشكّل في نفس الرسول حيث إن أصله المعنوي من الله سبحانه ويتشكل كلفظ في نفس الرسول من خلال الألفاظ التي يختزنها عقله من محيطه تماماً كالرؤى فهي معاني مرسلة تتشكل وفق ما متوفر لدى الرائي من ألفاظ وصورويها تنقل له الرسالة من الرؤيا).

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستنتج الحقيقة التالية: "لولا محمد (صلى الله عليه وآله) ما كان لمثل هذا القرآن العظيم الذي يتلوه المسلمون أن يظهر إلى الوجود في عالمنا هذا أصلاً"؛ لأنه الوحيد الذي يتسع إنائه - طهارة ومعرفة وإخلاصاً - لحمل حقائق القرآن ومعانيه الإلهية وإظهارها في هذا العالم بأروع وأجلى ما يكون، وهو الذي "لا ينطق عن الهوى" مطلقاً، "إن هو إلا وحي يوحى" دائماً و أبداً.

بهذا نكون خلصنا إلى أنّ الله سبحانه متكلم لا بلغة، بل إنّ العوالم العلوية ليس فيها أي لغة من لغاتنا الأرضية. وبخصوص اللغة العربية، فإن كونها لغة القرآن لا يمنحها ميزة ذاتية بقدر ما كانت ضرورة فرضتها لغة المتلقين الأوائل. بل ولا يمكن أن يكون وجه الإعجاز لغوياً؛ لأن القرآن كتاب إلهي مُوحى وله حقيقة علوية، وكونه كذلك يعني أنّ هويته وحقيقته ليست منطبعة بهوية لغوية لا عربية ولا غيرها من اللغات الأرضية، وأنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يتلقاه ككتاب لغوي ولفظي أصلاً، وستتكفل البحوث الآتية بيان هذه الحقيقة بشكل أكبر.

٨. حقيقة القرآن والكتب المقدسة:

٨.١- القرآن والكتب المقدسة بنظر العلماء:

طرح العلماء مسألة المُنْزَل من القرآن على النبي (صلى الله عليه وآله)، وذكر الزركشي [١] - حكاية عن السمرقندي - ثلاثة آراء في المسألة، هي:

١- إنّ المنزل هو اللفظ والمعنى، وأنّ جبرئيل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به.
٢- إنّ جبرئيل نزل بالمعاني خاصة على الرسول (صلى الله عليه وآله)، والرسول علِمَ تلك المعاني من جبرئيل وعبّر عنها بلغة العرب.
٣- إنّ المعاني ألقيت على جبرئيل، فألقاها إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) بلغة العرب بتعبيره.

لعل الباحث يرى أنّ أكثر الآراء رواجاً بين علماء المسلمين هو الأول. نعم، اضطر بعض الأشاعرة - نتيجة قولهم بالكلام النفسي - إلى اختيار القول الثالث كما سمعناه من الباقلاني في مطلع البحث السابق.

بل هو - أي الرأي الأول - مقتضى قولهم بالإعجاز اللغوي للقرآن، إذ لو كان الأمر بخلاف ذلك لما بقي فرق - كما يقولون - بين القرآن والحديث القدسي من جهة بلاغية بل بينه وبين سائر الأحاديث النبوية بعد أن كان الجميع بوحي من الله.

هم - إذن - يعتبرون أنّ لفظ القرآن له دور أساسي ومهم عند الحديث عن حقيقة القرآن، ولذلك فإنّ إعجازه يبطل - بنظرهم - بتغيير ألفاظه كما في صورة الترجمة مثلاً، وقد تقدم كلامهم فيها أول البحث.

---

١. انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١ / ٢٢٩.

والملفت أنّ الأمر لا يبقى على حاله عند الكلام عن بقية الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، أما لماذا وهي أيضاً كتب مقدسة ومنزلة من الله؟ يقولون: لأنها ليست معجزة من جهة لغتها وبلاغتها ولم يكن فيها تحدٍ كالقرآن.

قال السيوطي: (قال القاضي فإن قيل: هل تقولون إن غير القرآن من كلام الله معجز كالتوراة والإنجيل، قلنا: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب و إنما لم يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع في القرآن، ولأن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع فيه التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز) [١].

هذا من جهة تفريقهم بين القرآن وبقية الكتب السماوية.

وأما تفريقهم بين القرآن والأحاديث القدسية، فقال بعضهم: إنّ القدسي نزل بمعناه دون لفظه بخلاف القرآن الذي نزل بلفظه ومعناه. وقال آخر: إن القدسي هو المنزل بألفاظه لا لغرض الإعجاز بخلاف القرآن الذي قصد الإعجاز بسورة منه. وقال ثالث: القدسي هو ما أخبر الله بمعناه نبيه بالإلهام أو المنام وصاغه النبي لأمته بعبارته فلا يكون معجزاً كالقرآن [٢].

وبالنسبة لتمييزهم بين القرآن والأحاديث النبوية، فشبيه بالسابق، فهي بالرغم من كون معناها وحياً من الله لكنها من جهة لغوية وبلاغية لم يتم التحدي بها كالقرآن، كما أنها من صياغة النبي (صلى الله عليه وآله) حتماً بخلاف القرآن فهو لفظ ومعنى من الله، هذا هو مجمل قولهم في المسألة.

واضح إذن (بحسبهم) دور اللفظ القرآني في حقيقة القرآن، فهو - إضافة إلى كونه مُنزلاً (مع المعنى) من الله - الفيصل في التمييز بين القرآن وبقية الكتب المقدسة من جهة،

---

١. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٣٢٧؛ الباقلاني، إعجاز القرآن: ٣١.

٢. انظر: الداماد، الرواشح السماوية: ٢٩١؛ الطريحي، مجمع البحرين: ٦ / ٣٧٢. و أيضاً:
http://www.hodaalquran.com/rbook.php?id=١١٣٤٩&mn=١

وبينه وبين الأحاديث القدسية والنبوية من جهة أخرى، وبالنتيجة تكون اللغة - وفق رأيهم - دخيلة في حقيقة القرآن.

ونحن إذ انتهينا في البحوث السابقة إلى أنّ اللغة مجرد وسيلة للتفاهم والتواصل والتعليم في هذا العالم فقط؛ غالباً وليس دائماً، وأنّ العوالم العلوية لا شيء من اللغات الأرضية صالح للاستعمال فيها؛ لأنها أكمل وأرقى فهي - أي اللغات - عاجزة عن مجاراة تطورها ورقيها، وأنّ القرآن كتاب إلهي مُوحى واللغة لا دخل لها في الوحي أصلاً، وسنوضح الآن حقيقة الكتب المقدسة وأنها مستغنية عن الهوية اللغوية في حقيقتها أيضاً. بعد أن نكون أوضحنا كل هذا، فلا يمكننا - والحال هذه - أن نقبل بالنتائج التي انتهى إليها علماء المسلمين في هذا البحث، فلا اللفظ يشكّل جزءاً أساسياً من حقيقة القرآن (بنحوٍ يبطل وجه الإعجاز عند ترجمته مثلاً)، ولا أنّ ما ذكروه آنفاً من وجوه التمييز بين القرآن وبين غيره صحيحة.

٢.٨- حقيقة القرآن وعلاقته بالكتب المقدسة من وجه آخر:

عند الحديث عن حقيقة القرآن، لا ينبغي إغفال عالمه العلوي الذي نزل منه، "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ" [الشعراء: ١٩٣]، ولهذا كانت نصوصه في كثير من الأحيان مرمّزة ولا يمكن حملها على ظاهرها اللغوي [١].

القرآن في حقيقته العلوية نور لا ألفاظ، قال تعالى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" [الشورى: ٥٢].

---

١. ولهذا فهي تحتاج إلى ترجمان (عِدْل) يوضح المقصود منها، وأكيد أنّ مثل ذلك الترجمان له تواصل مع العوالم العلوية التي تنزّل القرآن منها ليتمكن من حل الترميز وبيانه، وهذه الحقيقة كشف عنها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في روايات كثيرة؛ منها حديث الثقلين "القرآن + آل محمد" المتواتر عند جميع المسلمين.

ثم إنّ إحدى المصائب الكبرى التي ألمّت بالمسلمين هي التفسير اللغوي واعتماد ظواهر الألفاظ، المنهج الذي حوّل القرآن المدوّن إلى مجموعة آراء مبعثرة وتأويلات وتفسيرات متناثرة تجمع بين الشيء وضده، وهذا واضح لكل من يقرأ كتب التفسير وعلوم القرآن لدى المسلمين في جميع المسائل المتعلقة بالقرآن ومنها مسألتنا (إعجاز القرآن). بل الأمر تعدى ذلك، فما من فرقة من فرق المسلمين إلا وتجدها تستدل باللفظ القرآني على صحة منهجها ومعتقداتها، بما في ذلك من يحكم عليه أغلب المسلمين بالزندقة والخروج عن الملة.

وأيضاً: حقيقة القرآن الكريم في العوالم العلوية لا تنفصل عن حقيقة محمد (صلى الله عليه وآله) في تلك العوالم، لهذا كان هو المظهر للقرآن في هذا العالم. فالقرآن في تلك العوالم نور الله سبحانه، وهو الحجاب بين الله ومحمد (في الملأ الأعلى)، كما في الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام): "بينهما حجاب يخفق" [١].

بهذا يكون محمد (صلى الله عليه وآله) أول من تلقّى حقيقة القرآن في العالم الأعلى. ولهذا، ورد في بعض الروايات أنه (صلى الله عليه وآله) المخلوق الأول، وهذا المعنى روي عند الشيعة بكثرة، منها: عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: "قلت لرسول الله (صلى الله عليه وآله): أول شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير" [٢]. وروي أيضاً عند السنة لكن بنسبة أقل، مثل قوله (صلى الله عليه وآله): "كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث"، أو "كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد" [٣].

ثم من الواضح أنّ مقام رسول الله أعظم من جبرئيل، قال تعالى: "ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى" [النجم: ٨ - ٩]، ومثل هذا المقام مختص به (صلى الله عليه وآله) ولم يصله جبرئيل (عليه السلام) ولا غيره، وهذا يؤكد - أيضاً - أنّ رسول الله أول من تلقّى حقيقة القرآن في العوالم العلوية.

من هنا يأتي السؤال: كيف تمكّن جبرئيل (الأقل مقاماً) من أن ينزل القرآن ويوحيه إلى رسول الله في هذا العالم مع أنه (صلى الله عليه وآله) أعلى مقاماً منه عند الله سبحانه؟

لا تجد إجابة واضحة عند علماء المسلمين بل لم يتطرق لها بعضهم أصلاً، لكن السيد أحمد الحسن أجاب السؤال بشكل واضح بعد أن بيّن حقيقة القرآن العلوية.

---

١. الكليني، الكافي: ١ / ٤٤٢، وانظر: أحمد الحسن، المتشابهات: سؤال رقم ٨١.
٢. المجلسي، بحار الأنوار: ١٥ / ٢٤؛ الآلوسي، روح المعاني: ١ / ٥١. تقصّدت تخريج الحديث من الآلوسي أيضاً لإثبات أنّ بعض أهل السنة يعتقدون بهذا أيضاً.
٣. انظر: السيوطي، الجامع الصغير: ٢ / ٢٩٦.

يقول: (القرآن هو الحجاب الذي يخفق بين الله سبحانه وتعالى وبين محمد (صلى الله عليه وآله)، وفي مرتبة معرفة محمد (صلى الله عليه وآله) للقرآن يكون محمد (صلى الله عليه وآله) هو هذا الحجاب، فيكون هو القرآن، فيخفق بين فناء في الذات الإلهية فلا يبقى إلا الله الواحد القهار، وبين عودة الأنا والإنسانية، فيكون محمد (صلى الله عليه وآله) المخلوق الأول ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [1] [الزخرف: ٨١]، وفي هذه المرتبة لا يعرف القرآن إلا محمد (صلى الله عليه وآله)، ...

فجبرائيل (عليه السلام) ليس له طاقة على معرفة أو تحصيل آيات القرآن في هذه المرتبة بل وحتى دون هذه المرتبة، حتى تصل النوبة في التنزل والتجلي إليه وإلى ملائكة الله المقربين (عليهم السلام)، فيعلمون من القرآن ما شاء الله لهم أن يعلموا، لما أظهره وجلّاه في عوالمهم (عليهم السلام)، وهو في تلك العوالم نوركلي في السماء السابعة، ومثال تفصيلي في السماوات الستة.

والقرآن الذي بين أيدينا هو ألفاظ تقرّب ذلك النور والمثال بالمعنى الذي تدل عليه هذه الألفاظ، .....

أما جبرائيل (عليه السلام) فقادر بقدرة الله سبحانه وتعالى أن ينطق بحروف القرآن، وينقلها لمحمد (صلى الله عليه وآله) في هذا العالم، أي لروح محمد (صلى الله عليه وآله) المدبرة لجسد محمد (صلى الله عليه وآله) في هذا العالم [2]. أما حقيقة القرآن التي بيّنتها في بداية الكلام فجبرائيل (عليه السلام) غير قادر على تحمّلها، بل إن محمداً (صلى الله عليه وآله) يأخذها من الله سبحانه وتعالى.

---

١. طرح علماء المسلمين آراء متعددة لبيان معنى الآية، منها: ١- أنا أول الأنفين من عبادته. ٢- أنا أول العابدين بأنه لم يكن للرحمن ولد. ٣- أنا أول العابدين لو كان له ولد ولكنه لا ولد له. ٤- "إن" في الآية بمعنى "ما" والمعنى: ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله. ٥- أنا أعبد الله ولا أعبد الولد. ٦- كما أني لست أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد. وغيرها من الأقوال. انظر على سبيل المثال: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٩ / ٢١٨؛ الطبرسي، مجمع البيان: ٩ / ٩٦؛ الطباطبائي، الميزان: ١٨ / ١٢٥؛ الطبري، جامع البيان: ٢٥ / ١٢٩؛ القرطبي، تفسير القرطبي: ١٦ / ١١٩.

٢. معنى نطق جبرئيل (عليه السلام) بحروف القرآن ونقله لمحمد (صلى الله عليه وآله) هو أنه يملأ صفحة وجوده وروحه بمعاني القرآن المنزلة من العوالم العلوية، ولهذا قال السيد أحمد الحسن: "أي لروح محمد"، وليس بمعنى أنه ينطق بها بحروف عربية ولغة أرضية، فقد تبيّن بما عرضنا من كلامه في البحوث المتقدمة أنّ العوالم العلوية ليس فيها لغة أرضية، كما أنّ جبرئيل (عليه السلام) من الملائكة ومن عالم علوي أيضاً، وسننتهي في هذا البحث كذلك إلى أنّ حقيقة القرآن ليست لغوية.

بقي أن تعرف أن جبرائيل (عليه السلام) ينقل القرآن من محمد (صلى الله عليه وآله) في الملأ الأعلى إلى محمد (صلى الله عليه وآله) في هذا العالم، فالذي يتلقّى القرآن من الله سبحانه وتعالى هو محمد (صلى الله عليه وآله) فقط، بل هو المتلقي لجميع الكتب السماوية والرسالات من الله، وجبرائيل (عليه السلام) يأخذ عنه وينقل) [١].

أما ما هي العلاقة بين حقيقة القرآن العلوية وبين القرآن اللفظي الموجود بين أيدينا؟ العلاقة تكمن في أنّ "القرآن اللفظي" ظهور وتجلي وصورة لحقيقة القرآن العلوية (لا أنه نفسها تماماً)، والصورة تكون بقدر مظهرها من جهة، ومن جهة أخرى: تظهر بالقدر الذي يستوعبه ويتحمّله العالم الذي تظهر فيه (وهو العالم الجسماني في حالتنا).

يقول السيد أحمد الحسن: (القرآن الذي بين أيدينا في هذا العالم الجسماني؛ هو ظهور وتجلي للقرآن الذي في العوالم العلوية بالألفاظ التي تناسب هذا العالم، فالقرآن في العوالم العلوية ليس بلفظي؛ لأن الألفاظ من لوازم هذا العالم الجسماني، وظهور القرآن في هذا العالم بقدر مُظهِره أي محمد (صلى الله عليه وآله)، وبقدر ما يسع هذا العالم الجسماني أيضاً. ومحمد (صلى الله عليه وآله) هو خير خلق الله، فيكون المعنى الذي ظهر بصورة القرآن اللفظية التي أظهرها محمد (صلى الله عليه وآله) في العالم الجسماني، هو أعظم معنى بصورة لفظية للقرآن ممكن أن يظهر في هذا العالم الجسماني) [٢].

واضح جداً أنّ حقيقة القرآن في العوالم العلوية ليست ألفاظاً، وبالتالي فإذا ما أردنا أن نصوّر وجهاً إعجازياً للقرآن فلابد أن يكون منسجماً مع حقيقته الأصلية العلوية، لا أن نجعله - فضلاً عن أن نحصره - في أمر عارض فرضه طبيعة المتلقين والمواجهين الأوائل له - أعني اللغة - كما عرفنا سابقاً.

أما بالنسبة إلى العلاقة بين القرآن وبقية الكتب المقدسة والفرق بينها، فلا يمكن قبول ما ذكره علماء المسلمين فيما تقدم عرضه، ولا أقل فإنّ من يطالع الروايات

---

١. أحمد الحسن، المتشابهات: رقم السؤال ١٤٧.
٢. أحمد الحسن، عقائد الإسلام: ٢٤٧ - ٢٤٨.

الشريفة يجد أنّ القرآن وبقية الكتب الإلهية شيء واحد لكنه مهيمن عليها كلها، كما ورد في قول رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أعطيت السور الطوال مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصل ثمان وستون سورة وهو مهيمن على سائر الكتب والتوراة لموسى والإنجيل لعيسى والزبور لداود) [١].

واضح من الرواية أنّ هناك علاقة وثيقة بين القرآن وباقي الكتب المقدسة، والقرآن مهيمن عليها كلها، ولا يخفى أنّ "هيمنة القرآن" لا تكون إلا إذا كان القرآن يحتوي ما في تلك الكتب وزيادة. وما ورد في الرواية هو الذي ينبغي المصير إليه حتماً، فلما كان دين الله سبحانه واحداً وما يبلغ به رسله منبعه واحد، فلا تكون التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وغيرها - والحال هذه - شيئاً آخر غير القرآن، والفرق فقط - كما يقول السيد أحمد الحسن - في الرسول الإلهي الذي يُظهر من القرآن على يديه في هذا العالم ما يتناسب مع حاله ومقامه وإخلاصه، لا أنّ الفرق يكمن في اللغة ووجوهها البلاغية كما فهم علماء المسلمين.

ما بيّنه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في العلاقة بين القرآن وبقية الكتب المقدسة فصّله وأوضحه السيد أحمد الحسن بأروع بيان وانتهى إلى أنّ جميع الكتب المقدسة ما هي إلا تجلٍ وظهور لحقيقة القرآن في العوالم العلوية، غاية ما في الأمر أنّ الرسول الإلهي يظهر منه في عالمنا ما يناسب حاله ومقامه، يقول:

(والتوراة والإنجيل التي نزلت على موسى وعيسى (عليهما السلام) ليست شيئاً آخر غير القرآن، بل هي أيضاً تجل وظهور للقرآن في هذا العالم الجسماني، والفرق بينها هو مقام القابل الذي أظهر القرآن في هذا العالم أي محمد وعيسى وموسى (عليهم السلام)، فبما أن محمداً (صلى الله عليه وآله) أعظم إخلاصاً وأعلى مقاماً؛ يكون ما أظهره أعظم وأعلى شأناً وأتم وأكمل مما يظهره موسى أو عيسى، وبهذا تكون التوراة والإنجيل عبارة عن أجزاء من القرآن، ويكون القرآن مهيمناً عليها ومحتويها، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

١. الكليني، الكافي: ٢ / ٦٠١. وروي بنفس المضمون "عن واثلة بن الأسقع" في بعض مصادر أهل السنة أيضاً، انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١ / ٣٧؛ الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١ / ٢٤٤؛ الشوكاني، فتح القدير: ١ / ٢٨.

وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]. ....

هكذا هو الحال فمحمد (صلى الله عليه وآله) لعلو مقامه، ولأن القرآن الإلهي في قلبه وهو في قلب القرآن الإلهي، فقد أظهر أعظم حقيقة ممكن أن تظهر من القرآن في هذا العالم الجسماني. أما عيسى وموسى (عليهما السلام) فقد أظهرا من القرآن الإلهي بقدرما سمح لهما حال كل منهما في القرب والبعد عن القرآن الإلهي، وكذا الأمربالنسبة لإبراهيم (عليه السلام) ونوح وبقية الأنبياء (عليهم السلام).

فالذي أنزل قبل القرآن أيضاً قرآن، ولكنه بعض القرآن الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله). فالتوراة والإنجيل قرآن أيضاً، ولكن القرآن الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله) أشمل و أتم وأعظم ومهيمن عليها، ولهذا فالذين كانوا يعرفون التوراة والإنجيل أو يعرفون بعض ما فيها؛ بمجرد أن سمعوا القرآن عرفوا أنه توراة و إنجيل، بل وأعظم منهما ومصدره ومصدرهما واحد. قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقد أنزل بعض القرآن (التوراة) على موسى، و أنزل بعضه (الإنجيل) على عيسى، و أنزل كل القرآن أي بصورة أتم و أكمل على محمد؛ لأن القابل أعظم و أقدر، أي أننا نستطيع القول إن انزال القرآن الأتم والأكمل على غير محمد (صلى الله عليه وآله) أمر غير ممكن، تماماً كمحاولة وضع متر مكعب من الماء في إناء سعته لتر واحد، ولهذا لم يكن انزال القرآن إلا في الوعاء المهيأ والقادر على استقباله، والتوراة والإنجيل هي قرآن أو بعضه، مع أنها مختلفة في محتواها وألفاظها؛ لأنها توصل نفس الحقيقة، و إيصال الحقيقة يمكن أن يتم بألفاظ مختلفة، بل وحتى من خلال معان مختلفة أيضاً، فالمطلوب الأهم هو هذه الحقيقة وليس اللفظ بل ولا حتى المعنى) [١].

يمكننا أن نفرّع على هذا البيان، ونقول:

١. أحمد الحسن، عقائد الإسلام: ٢٤٩.

إنّ جميع الأنبياء والمرسلين لا غنى لهم عن القرآن، وإنّ كل ما عندهم من خير يعود في أصله إلى القرآن وحقيقته في العوالم العلوية ولا يخرج عنه أبداً، فكل ما يُوحى لهم ممّا له علاقة بالعلم الديني والمعارف الإلهية والأخلاق والتشريع ونحو ذلك يعود بالنتيجة إلى حقيقة القرآن العلوية، وليس بالضرورة أن يكون ما يُوحى لهم من تلك الحقيقة بمرتبة واحدة؛ لأنها - كما عرفنا - متفاوتة منزلةً وشأناً وتحوي مراتب كثيرة بحسب العوالم والتنزلات فيها.

ثم إنّ خلفاء الله عموماً (صلوت الله عليهم) لما تفاوتت مقاماتهم بحسب إخلاصهم كانوا على عدة مراتب من جهة الأخذ من حقيقة القرآن العلوية، وما يُوحى لهم منها في هذا العالم:

- فبعضهم أخذ من حقيقة القرآن العلوية عبر الوحي ما سمح به إخلاصه ومقامه فانعكس ذلك على علمه ومعرفته التي تجسّدت في وصاياه وتعاليمه وتشريعاته للمكلفين بطاعته في زمانه، لكن لم يسمح له مقامه بالأكثر من هذا، ولم يظهر على يديه شيء يُتلى من القرآن في هذا العالم.

- وبعضهم - إضافة لما ذكر - سمح له مقامه وإخلاصه بأن يظهر جزءاً من حقيقة القرآن العلوية في هذا العالم بصورة ألفاظ (بحسب الموحى له مما يتناسب مع مقامه)، فكانت على شكل صحف أو كتاب كما حصل مع إبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) وغيرهم.

- ولما كان محمد (صلى الله عليه وآله) هو الأكمل والأعلى مقاماً بين جميع خلفاء الله استحق بإخلاصه وطهره أن يُظهر جميع ما يمكن أن يَظهر من حقيقة القرآن العلوية (بأعلى تجلياتها) في هذا العالم على شكل ألفاظ تُتلى وتعبر عن المعاني الإلهية العلوية بأفضل صورة ممكنة، ولهذا قلت سابقاً: [لولا محمد (صلى الله عليه وآله) ما كان لمثل هذا القرآن العظيم الذي يتلوه المسلمون أن يظهر إلى الوجود في عالنا هذا أصلاً].

ربما صار بوسعنا الآن معرفة السبب في ورود وصف "الكتاب" معرّفاً بالألف واللام في معرض بيان ما عند الأنبياء من كتب، قال تعالى: "يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا" [مريم: ١٢]. "قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا" [مريم: ٣٠]. "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ" [المؤمنون: ٤٩]. "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا" [فاطر: ٣٢].

والسبب: أنّ كتاب الله سبحانه في الحقيقة واحد وهو القرآن بحسب حقيقته، لكن مراتبه وتجلياته متعددة في العوالم العلوية كما عرفنا ويوحي الله منها إلى خلفائه في هذا العالم كلٌّ بحسب مقامه وإخلاصه. فاختلاف مقام الموحى له هو الذي أدّى إلى ظهور القرآن في هذا العالم بصورة ألفاظ تحكي المعاني العلوية بأنحاء متعددة، فما عند يحيى هو قرآن بحسب مقام يحيى، وكذلك ما عند موسى وعيسى هو قرآن بحسب مقام كل منهما، وما عند محمد (صلى الله عليه وآله) هو القرآن بالنحو الأتم والأكمل الذي تسمح به حدود هذا العالم الجسماني.

ولهذا ورد في وصف كتاب موسى (عليه السلام) - مثلاً - بأنه "نور" تماماً كما ورد في وصف القرآن الكريم، قال تعالى: " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ" [الأنعام: ٩١].

بل مثل هذا التشابه نلاحظه أيضاً - بحسب الروايات - حتى في كيفية تلاوة كل منهما، قال الإمام الصادق (عليه السلام) في كيفية تلاوة التوراة: (إن الله عزوجل أوحى إلى موسى ابن عمران (عليه السلام): إذا وقفت بين يدي فقف موقف الذليل الفقيروإذا قرأت التوراة فأسمعنيها بصوت حزين)، وهي نفس الكيفية المرغوبة عند تلاوة القرآن الكريم، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن القرآن نزل بالحزن فاقرؤوه بالحزن) [١].

وهذا يؤكد بوضوح ما أوضحه السيد أحمد الحسن من أنّ ما عند الأنبياء من كتب وصحف ما هو إلا جزء من القرآن، والفرق فقط في مقام المتلقي له من خلفاء الله كما تبيّن.

١. الكليني، الكافي: ٢ / ٦١٤، ٦١٥.

اتضح بما تقدم أنّ القرآن متقوّم بحقيقته العلوية، وهي ليست لغوية، فالقرآن لا يتقوّم بلفظه العربي لتكون اللغة العربية هي وجه إعجازه ويُحرم سائر المعتقدين به (من غير العرب) من تذوّق شهده وإدراكه، والحال أنّ كتب الله المقدسة كلها (بأي لغة كانت) ما هي إلا جزء من حقيقة القرآن العلوية لا غير.

يترتب على هذا:

١- إنّ إعجاز القرآن لا يبطل بالترجمة الصحيحة، وسيتضح أكثر عند بيان الوجه الصحيح لإعجاز القرآن.

٢- إنّ قطع النظر عن حقيقة القرآن العلوية عند الحديث عن الفرق بين القرآن اللفظي وغيره مما ورد بالعربية كالأحاديث القدسية والنبوية، وحصره بالفرق اللفظي واللغوي، هو في الحقيقة إعدام للفرق فيما بينها، بل وإعدام للفرق بينها جميعاً وبين كلام بقية العرب؛ لأنها كلها - من حيث اللغة - جارية بنفس الحروف والكلمات والنظم والأسلوب العربي المعروف. اللهم، إلا بقدر اختصاص صاحب كل كلام بكلامه أصالة بحيث إنّ من يأتي به بنحو مشابه يكون مقلداً له.

قال السيد أحمد الحسن في إجابة سؤال عن الفرق اللفظي بين القرآن والحديث القدسي والنبوي:

(الحقيقة إنه لا فرق بين ما ذكرت من هذه الجهة، ولا فرق بينها وبين كلام بقية العرب إلا بقدر كون كل كلام خاص بمتكلمه أي له خصوصية الأصالة فلكل متكلم خصوصية بكلامه ومن يأتي بمثلها يكون مقلداً له) [1].

نعم، عندما نأخذ بنظر الاعتبار حقيقة القرآن العلوية ومراتبها السماوية، و أيضاً نلاحظ وجه الإعجاز الصحيح للقرآن الكريم (الآتي لاحقاً) عند إجراء المقارنة بين القرآن اللفظي وبين الأحاديث القدسية والنبوية يتضح الفرق بينها.

١. من حوار مباشر مع السيد أحمد الحسن.

والآن، لم يتبقَ لنا غير بيان وجه الإعجاز الصحيح للقرآن الكريم، لكن ليس قبل أن نعرف موقع القرآن الكريم من نبوة محمد (صلى الله عليه وآله).

٩. القرآن وخلافة محمد (ص):

١.٩- القرآن ونبوة محمد (ص) بنظر العلماء:

واضح أنّ علماء المسلمين - بكل طوائفهم - يعتبرون القرآن الكريم أهم دليل على صدق رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) في دعوته وإثبات نبوته. لكن لا ترى الوضوح نفسه لما تغور إلى أعماق المسألة، فالقرآن كما يعرف الجميع لم ينزل دفعة واحدة، وإنما اكتمل نزوله خلال مدة تقرب من ٢٣ سنة قضاها النبي (صلى الله عليه وآله) بين المسلمين، فلما يقال: إنّ القرآن دليل على صدق دعوته ماذا يقصد العلماء بذلك؟ هل يقصدون أنّ النبي الأكرم انتظر ٢٣ عاماً من عمر دعوته الإلهية ليكتمل بعدها دليل نبوته؟ أو أنّهم يقصدون كفاية شيء من القرآن في تحقق الدلالة على نبوته؟

من جانب آخر: إذا كان شيء من القرآن كافٍ بنظرهم، وهم في نفس الوقت يرون أنّ وجه إعجاز القرآن ودلالته على نبوة النبي هو اللغة والفصاحة التي نزل بها وقد عجز عنها فصحاء وبلغاء العرب عند التحدي، فعجزهم يثبت نبوته، وهو ما يجده أي باحث ومتابع في كتبهم، وبالتالي يكون لزاماً عليهم إثبات أمرين بنحو القطع (لأننا نتكلم في أهم المسائل العقائدية) ليصح استدلالهم:

الأول: إثبات أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان معه من القرآن ما يكفي لتحقق الإعجاز اللغوي - كما هم يصوّرون - والتحدي به في أول لحظة ابتدأ فيها دعوته الإلهية.

الثاني: إثبات أنه (صلى الله عليه وآله) تحدّى العرب بما نزل عليه من القرآن للإتيان بمثله من زاوية لغوية وبلاغية.

أما **الأمر الأول**، فهم بالرغم من اختلافهم في بيان القدر المعجز من القرآن - كما عرضناه أوائل البحث - لكني سأتنزل معهم الآن و أفترض أنّهم مجمعون على أنّ القدر المعجز هو السورة، وبالتالي فلابد أن يكون مع النبي (صلى الله عليه وآله) سورة كاملة من القرآن منذ أول لحظة شروعه بدعوته الإلهية ليكون دليل نبوته تام الدلالة وفق ما انتهوا إليه.

ولكننا لما نعود إلى أقوال العلماء في بيان أول ما نزل من القرآن نجدهم منقسمين على أقوال كثيرة، أشهرها ثلاثة:

١- إنّ أول ما نزل هو سورة العلق، أو الآيات الخمس الأولى منها كما عليه أكثر المفسرين بحسب نقل المجلسي [١]،
٢- سورة المدثر أو الآيات الثلاث أو الأربع أو الخمس الأولى منها بحسب اختلاف الروايات [٢].
٣- سورة الفاتحة، وزعم الزمخشري أنّ أكثر المفسرين عليه [٣].

ثم إنّ بعضهم اكتفى بنقل الأقوال [٤]، وبعض آخر حاول الجمع بينها.

قال الزركشي: (وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات "اقرأ باسم ربك" وأول ما نزل من أوامر التبليغ "يا أيها المدثر"، وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة) [٥].

وبالرغم من أنّ المسألة مهمة جداً، إلا أنها لم تُحسم عندهم بضرس قاطع، لا من جهة اسم السورة النازلة أولاً، ولا من جهة طبيعة النازل أولاً وهل هو سورة أو آية أو عدة آيات، والسبب هو اختلاف الروايات.

---

١. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ١٨ / ١٧٤.
٢. انظر: البخاري، صحيح البخاري: ٦ / ٧٤ - ٧٥.
٣. الزمخشري، الكشاف: ٤/ شرح ص ٢٧٠.
٤. انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن: ٢٩٣.
٥. الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨.

وإذا أردنا مجاراة الزركشي الذي يرى أنّ أول ما نزل آية وجمعنا له القائل بعدة آيات أو من اكتفى بنقل الأقوال فقط (وهم كثر بطبيعة الحال)، ثم ضممنا إلى موقفهم هذا القول بأنّ أقل المعجز من القرآن هو سورة، فسيكون الرسول (صلى الله عليه وآله) - عندهم - قد ابتدأ دعوته دون كفاية دلالة القرآن على نبوته، وعليهم حينئذٍ أن يقدّموا دليلاً قطعياً آخر على صدقه في رسالته؛ لأنه لا يعقل أن يبدأ رسول إلهي دعوته التي يجب على جميع الخلق الإيمان بها والحال أنّ دليله سيكتمل خلال مسيرته الدعوية!

بل حتى لو كانوا مجمعين على أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) كان معه سورة كاملة منذ اللحظة الأولى لابتداء دعوته، عليهم - لإثبات صحة طريقتهم في الاستدلال على أحقية دعوة الرسول بالقرآن - أن يبيّنوا أنه (صلى الله عليه وآله) تحدّى بها فصحاء العرب منذ أول لحظة شرع فيها بدعوته وثبت عجزهم عن الإتيان بمثلها!

ولا أعتقد أنهم قادرون على إثبات ذلك؛ لأن مثل هذا الأمر غير متوفر في سيرته المباركة أصلاً، بل الثابت في سيرته القطعية أنّ أول من صدّقه في دعوته هو الإمام علي بن أبي طالب والسيدة خديجة (صلوات الله عليهما)، فإنهما آمنا به وصدقاه بمجرد أن سمعا منه دعوته ورسالته، ثم التحق بهم مجموعة من المسلمين الأوائل تباعاً ولم ينتظر أحد منهم عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثل القرآن (السورة التي كانت معه بحسب الفرض) ليثبت لهم صدق محمد (صلى الله عليه وآله) في دعوته!

ثم إنّ المعروف عن الدعوة الإسلامية أنها كانت سريّة لمدة ثلاث سنوات تقريباً آمن خلالها مجموعة من المسلمين الأوائل ثم شاع أمرها وظهرت إلى العلن بعد ذلك، وحتى مع ظهورها إلى العلن، بل وحتى يوم الرسول (صلى الله عليه وآله) الأخير في هذه الدنيا ورحيله عنها، لم يثبت أنه طلب من أحد أن يعارض القرآن في فصاحته أو بلاغته مطلقاً كما سنعرف بعد قليل.

وأما **الأمر الثاني**، فلم يثبت بالدليل القطعي أنّ التحدي المذكور في القرآن هو تحدٍ بالرد اللغوي واللفظي، فلا القرآن بيّن ذلك صراحة، ولا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) - بحسب سيرته في بداية دعوته - صرّح بذلك أيضاً.

أما آيات التحدي، فهي ما ورد في القرآن من التحدي بالإتيان بمثل سورة أو عدة سور أو بمثل القرآن كله، قال تعالى:

- "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [يونس: ٣٨].
- "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [هود: ١٣].
- "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" [الإسراء: ٨٨].

ونحن إذا تدبّرنا هذه الآيات نجدها صريحة في أصل التحدي، لكن لن نجد فيها أي إشارة صريحة إلى أنّ التحدي المذكور فيها هو تحدٍ بالرد اللغوي ومعارضة القرآن من جهة فصاحته وبلاغته، فلِمَ لا يكون التحدي - مثلاً - بأن يأتوا بمثل القرآن أو بسورة أو سور منه من جهة كونه نوراً وكتاب هداية؟ أو أن يأتوا بمثله من جهة معارفه وحقائقه، أو من جهة تأثيره في نفوس السامعين له؟ لِمَ لا يكون التحدي من جهة كون القرآن كتاب موعظة، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (... وإن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره) [(١)]، وغير ذلك من وجوه محتملة.

حقيقة، لا أعرف وجهاً علمياً محكماً وصحيحاً (آية صريحة، رواية قطعية، دليل عقلي محكم) حتّم على العلماء اختيار التحدي بالرد اللغوي دون سواه؟!!

أما إذا كان بعضهم يريد استفادة التحدي بالرد اللغوي من مثل قول الإمام الرضا (عليه السلام): (إن الله تبارك وتعالى أنزل هذا القرآن بهذه الحروف التي يتداولها جميع العرب، ثم قال: "لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً") [(٢)]، فهو مخطئ؛ لأن قوله (عليه السلام) - إضافة إلى عدم صراحته في ذكر التحدي اللغوي - يعني به نفس ما عنته الآيات القرآنية

١. نهج البلاغة: ٢٥٥ / خطبة ١٧٦، تحقيق: صبحي الصالح.
٢. الصدوق، الأمالي: ٤٠٥.

الكريمة التي بيّنت أنّ القرآن نزل بلسان عربي، وقد تقدم بيان المراد منها وأنها تعني أنّ القرآن نزل بلغة العرب وهم المواجهون الأوائل له فالمفروض بهم يفهمونه ويعقلونه بسهولة، ولم تكن بصدد تفضيل اللغة العربية على غيرها من جهة الفصاحة والبلاغة ونحو ذلك ليكون الجانب اللغوي في القرآن هو المقصود بالتحدي ويكون هو الوجه في إعجازه [١].

وأما سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) في بداية دعوته فسنتعرف الآن على شيء منها وسنرى عدم صدور أي دعوة أو تحدٍ منه لأي بشر كان بأن يأتي بمثل فصاحة القرآن.

٢,٩- هل طلب الرسول (ص) من أحد معارضة القرآن لفصاحته؟

الثابت تاريخياً هو أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يدعو قومه إلى الله بالحكمة ومكارم الأخلاق، ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن، فكان يؤمن به من يؤمن ويكفر به من يكفر. كذلك: كان يحتج عليهم بالعلم الإلهي الذي زوده الله به ويجيب أسألتهم، ولم يكن شيء في سيرته أنه دعا فصحاء العرب في يوم ما إلى معارضة القرآن من جهة الفصاحة والبلاغة اللغوية كما فهم العلماء.

وهذه بعض الأحداث التي روتها كتب السيرة عن بداية الدعوة الإسلامية:

١- رسول الله (صلى الله عليه وآله) يدعو الناس إلى الله:

(عن عمرو بن عبسة قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخف فقلت: ما أنت قال: أنا نبي فقلت: وما النبي قال رسول الله قلت: آلله أرسلك قال: نعم قلت: بما أرسلك قال: بأن يعبد الله وتكسر الأوثان وتوصل الأرحام قال قلت: نعم ما أرسلك به) [٢].

---

١. راجع تفسير السيد أحمد الحسن للآيات في خاتمة الفقرة (٦) من البحث.

٢. البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ٢ / ١٦٨.

(عن بن عباس قال: لما أنزلت و أنذر عشيرتك الأقربين صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال يا معشر قريش فقالت قريش محمد على الصفا يهتف فأقبلوا واجتمعوا فقالوا ما لك يا محمد قال أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني قالوا نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة حتى عدد الأفخاذ من قريش إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين و إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله قال يقول أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فأنزل الله تبارك وتعالى تبت يدا أبي لهب وتب السورة كلها) [1].

(عن ربيعة الدؤلي قال ر أيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول أيها الناس لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم قلت من هو قالوا هذا أبو لهب) [2].

٢- رسول الله يتلو القرآن في دعوته للناس ويعتصم به من أذى المشركين:

ذكر البيهقي قصة إسلام ثمانية أشخاص فيهم أبو بكر والزبير وعثمان وطلحة وغيرهم، يقول: (... فانطلقوا حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم أبو بكر فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن و أنبأهم بحق الإسلام وبما وعدهم الله من الكرامة فآمنوا) [3].

وكان (صلى الله عليه وآله) يعتصم بالقرآن من أذى المشركين كما في قصة مجيء زوجة أبي لهب "أم جميل" لإيذائه وكان معه أبو بكر في حينها، (فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبلت و أنا أخاف أن تراك قال النبي صلى الله عليه وسلم إنها لن تراني وقرأ قرآناً فاعتصم به) [4].

٣- بعض من سمع بدعوة الرسول رأى رؤيا فآمن به:

---

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١ / ٢٠٠.
٢. البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ٢ / ١٨٥.
٣. المصدر السابق: ٢ / ١٦٥.
٤. المصدر السابق: ٢ / ١٩٥.

كان خالد بن سعيد بن العاص من المسلمين الأوائل، (وكان بدو إسلامه أنه رأى في النوم أنه وقف به على شفير النار فكر من سعتها ما الله أعلم به ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بحقويه لا يقع ففزع من نومه فقال أحلف بالله أن هذه لرؤيا حق) (١).

وعن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: (سمعت أبي يقول: رأيت في المنام قبل أن أسلم بثلاث كأني في ظلمة لا أبصر شيئاً إذ أضاء لي قمر فاتبعته فكأني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة وإلى علي بن أبي طالب وإلى أبي بكر وكأني أسألهم: متى انتهيتم إلى ها هنا ؟ قالوا: الساعة، وبلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام مستخفياً، فلقيته في شعب أجياد وقد صلى العصر فقلت: إلى ما تدعو ؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله، قال: قلت أشهد أن لا إله إلا الله و أنك محمد رسول الله) (٢).

٤- احتجاج رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالعلم:

قال ابن هشام: (وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان [قد] قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش، أحسن حدثنا منه، فهلم [إلي] فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني؟ ...

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه، وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفا لهم أمره،

١. البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ٢ / ١٧٢.
٢. ابن الأثير، أسد الغابة: ٢ / ٢٩٢.

وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول: ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت له قصة عجب، وعن رجل كان طو افا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟

قال: فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتم عنه غدا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسور أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح) [١].

٥- وهذا حوار دار بين النبي (صلى الله عليه وآله) وبين كبار قريش أول الدعوة يوضح حجم المعاناة التي لاقاها أكرم خلق الله من قومه وكيفية دعوته لهم:

اجتمع كبار قريش فأرسلوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فجاءهم وهو الحريص عليهم المحب لرشدهم فعرضوا عليه الأموال والزعامة والملك ونحو ذلك لترك دعوته، فأجابهم: (ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ١٩٥ – ١٩٦.

فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، و أنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم، أو كما قال صلى الله عليه وسلم. قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، و أنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق [كما نقوم] وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل، قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، و إنا والله نؤمن بالرحمن أبدا فقد أعذرنا إليك يا محمد، و إنا الله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات

الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم...) [١].

من تأمل مجريات الأحداث التي حصلت في بداية بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) يجد فيها ما ذكرناه من دعوته الناس إلى الله وتلاوته لكتاب الله من أجل سماعهم له وتأثرهم به، واحتجاجه عليهم بالعلم، وقبوله إيمان من شهد له الله برؤيا صادقة بأحقيته، ونحو ذلك. ولن يجد شيئاً يُذكر بخصوص دعوته العرب عموماً أو كبار فصحائهم بالخصوص لمعارضة القرآن من جهة الفصاحة حتى إذا ما بان عجزهم صدقت نبوته كما يزعم العلماء؟! لن يجد المتتبع مثل هذا أبداً.

نعم، ربما فهم العلماء ذلك من أحد أمرين:

الأول: وصف الوليد بن المغيرة للقرآن، حيث قال: (فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة و أنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله و إنه ليعلو وما يعلا و أنه ليحطم ما تحته) [٢].

لكنه فهم خاطئ بطبيعة الحال؛ لأن وصف الوليد لا يتضمن تصريحاً ولا حتى إشارة إلى أنّ القرآن معجز لفصاحته و إنما كان بصدد نفي الشبه بينه وبين المعهود عند العرب من كلام من شعر ورجز ونثر ونحو ذلك، وهذا صحيح فالقرآن لا من جنس الشعر أو النثر ولا غير ذلك بل له أسلوبه الخاص به، أما أنه ليس مثلها من حيث الفصاحة بالذات فلا شيء في كلام الوليد يؤكد ذلك.

ثم - وهو المهم - متى كان كلام مثل الوليد حجة يحتج بها في دين الله وفي أمر عقائدي خطير كالذي نحن بصدده؟! فالقول - كيفما تم تفسيره - هو للوليد وليس لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، والرسول كان يتلو القرآن سواء كان على الوليد أو على

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ١٩١ – ١٩٣.
٢. البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: ٢ / ١٩٨.

غيره من الناس وآمن به بسبب ذلك من قد آمن، لكنه (صلى الله عليه وآله) لم يطلب لا من الوليد ولا من غيره معارضة القرآن من ناحية فصاحته.

والأهم من كل ذلك: بين أيدي الجميع "القرآن نفسه، وما وصلنا من سيرة الرسول محمد (ص)" وبوسع الجميع الرجوع إليهما وقراءتهما، وسوف لن يجدوا لما ظنّه العلماء "التحدي اللغوي" عيناً ولا أثراً.

أضف إليه: إنّ الحادثة التي وصف فيها الوليد بن المغيرة القرآن، نُقلت بوجوه أخرى أكثر تفصيلاً، وهي تؤيد بوضوح تام الوجه الصحيح لإعجاز القرآن كما سيتضح في الفقرة الأخيرة من البحث.

الثاني: قصة عتبة بن ربيعة، إذ نقل ابن هشام أنّ قريشاً اتفقت على إرسال عتبة بن ربيعة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليطرح عليه العروض المغرية وثنيه عن دعوته، فكان جوابه له: (قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: " {بسم الله الرحمن الرحيم. حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه - ١ إلى ٥ من سورة فصلت} ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة) [١].

من يقرأ قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعتبة "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك". يتأكد له ما قلناه سابقاً، أعني: أنّ الرسول كان يتلو القرآن على الناس ثم يترك الخيار لهم إن شاؤوا آمنوا وإن شاؤوا لم يؤمنوا، ولم يطلب من عتبة أو

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ١٩٠.

غير عتبة أن يعارضوا القرآن من جهة الفصاحة أبداً، بل ليس في كلام عتبة نفسه مثل هذا التصريح؛ تماماً كحال كلام الوليد المتقدم آنفاً.

حقيقة الأمر، إنّ من يقول بالإعجاز اللغوي للقرآن يصوّر النبي (وحاشاه) كأنه يحمل ما معه من القرآن ويبحث في نوادي الأدب والشعر يومذاك في مكة عن أكثر العرب فصاحة ويتحداهم أن يأتوا بمثله، ولأجل ماذا؟ لأجل أن يثبت نبوته؟!!

يقول الشيخ السبحاني: (في عصر نزول القرآن الكريم كان أول ما سحر عيون العرب، وحير أرباب البلاغة والفصاحة منهم جمال كلمات القرآن، وعجيب تركيبه، وتفوق بيانه، الذي يعبر عن ذلك كله بالفصاحة والبلاغة. إن هذه الخصوصية كانت بارزة ومشهودة للعرب يومذاك بصورة كاملة، ومن هنا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - بتلاوة آيات الكتاب، مرة بعد أخرى، وبدعوته المكررة إلى مقابلته والإتيان بمثله إن استطاعوا - يدفع عمالقة اللغة والأدب، و أبطال الشعر ورواده، إلى الخضوع أمام القرآن، والرضوخ لعظمة الإسلام، والاعتراف بكون الكلام القرآني فوق كلام البشر) [1].

ويقول السيد الخوئي: (القرآن معجزة إلهية: قد علم كان عاقل بلغته الدعوة الإسلامية، أن محمدا - ص - بشر جميع الأمم بدعوتهم إلى الإسلام، و أقام الحجة عليهم بالقرآن، وتحداهم بإعجازه، وطلب منهم أن يأتوا بمثله وإن كان بعضهم لبعض ظهيرا، ثم تنزل عن ذلك فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ثم تحداهم إلى الإتيان بسورة واحدة.

وكان من الجدير بالعرب - وفيهم الفصحاء النابغون في الفصاحة - أن يجيبوه إلى ما يريد، ويسقطوا حجته بالمعارضة، لو كان ذلك ممكنا غير مستحيل. نعم كان من الجدير بهم أن يعارضوا سورة واحدة من سور القرآن، ويأتوا بنظيرها في البلاغة، فيسقطوا حجة هذا المدعي الذي تحداهم في أبرع كمالاتهم، وأظهر ميزاتهم، ويسجلوا لأنفسهم ظهور الغلبة وخلود الذكر، وسمو الشرف والمكانة، ويستريحوا بهذه المعارضة البسيطة من حروب طاحنة، وبذل أموال، ومفارقة أوطان، وتحمل شدائد ومكاره.

١. السبحاني، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت: ١٤٧.

ولكن العرب فكرت في بلاغة القرآن فأذعنت لإعجازه، وعلمت أنها مهزومة إذا أرادت المعارضة، فصدق منها قوم داعي الحق، وخضعوا لدعوة القرآن، وفازوا بشرف الإسلام، وركب آخرون جادة العناد، فاختاروا المقابلة بالسيوف على المقاومة بالحروف، و آثروا المبارزة بالسنان على المعارضة في البيان، فكان هذا العجز والمقاومة أعظم حجة على أن القرآن وحي إلهي خارج عن طوق البشر) [١].

تعليق: مَنْ يقول إنّ حجة محمد (صلى الله عليه وآله) في إثبات نبوته أنه طلب من العرب معارضة القرآن بالفصاحة، و أنه تحداهم بإعجاز القرآن من هذه الجهة بالذات ولما علموا أنهم مهزومون بلاغياً لا محالة ولم يعارضوه ثبت صدقه؟! ما هو الدليل على ذلك؟! فلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) صدر منه قولاً أو فعلاً يوحي بذلك كما لاحظنا، ولا أنّ القرآن صرّح به أيضاً، وأما بخصوص آيات التحدي فهي - كما بيّنا - ليست صريحة في أنّ وجه التحدي لغوي وبلاغي.

ثم إنّ الأمر يكون أدهى وأمرّ إذا ما عرفنا أنّ السيد الخوئي - وآخرين - يحصرون دليل التصديق بالنبوة بالمعجز فقط، يقول: (قد عرفت أن طريق التصديق بالنبوة والإيمان بها، ينحصر بالمعجز الذي يقيمه النبي شاهداً لدعواه) [٢].

٣,٩- القرآن معجزة كبقية المعاجز المادية عند العلماء:

الأمر الآخر الملف في بحوث العلماء أنهم يشبّهون إعجاز القرآن بسائر معاجز الأنبياء المادية كقلب عصا موسى (عليه السلام) حيّة تلقف أفك السحرة، أو تطبيب عيسى (عليه السلام) لبعض المرضى في زمانه وشفائهم على يديه وما شابه ذلك.

وهذا التشبيه يراه الباحث في كلام العلماء كثيراً، وهو في الحقيقة انتقاص من القرآن دون أن يعي العلماء ذلك.

---

١. الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٠ - ٤١.

٢. المصدر السابق: ٤٣.

والسبب: إنّ معاجز الأنبياء المادية (أي معجزة كانت)، التي يُعبّر عنها عادة بـ "الآيات" في النص الديني، ليست هي الأساس في التعرف على خلفاء الله عموماً؛ لأنها ببساطة قد تحصل وقد لا تحصل، وهي ليست متوفرة دائماً مع جميع خلفاء الله على طول خطهم الرسالي، فهي قد تحصل في زمن نبي ما لحكمة أرادها الله سبحانه، وقد لا تحصل في زمن نبي آخر لحكمة أيضاً كعلمه سبحانه بتكذيبهم لها، قال تعالى: "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ" [الإسراء: ٥٩]، ومع ذلك فالدليل على أحقية الرسل متوفر دائماً ولا يضر عدم مجيئهم بالآيات على صدقهم في دعواتهم الإلهية شيئاً.

و أيضاً: بالنسبة للإتيان بالآيات (المعاجز المادية) أمرها معلّق على إذنه سبحانه، قال تعالى: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ" [العنكبوت: ٥٠]. ولا يُعقل أن يكون دليل صدق أنبياء الله أمر غير موجود فعلاً وإنما هو معلق وموقوف على إذن الله، وإلا فهو "نذير مبين" بماذا؟ ثم هل سمع أحد بأنّ نبياً من الأنبياء طالبه قومه بالدليل على صدق دعوته وطلب منهم الانتظار حتى يأذن الله بمجيء الدليل أو أجابهم بأنه أمر معلّق على إذن الله بالإتيان به، هل حصل مثل هذا مع أحد منهم صلوات الله عليهم؟!! كلا أبداً، فالواقع يشهد أنهم يبيّنون ويقيمون الحجة على الناس كما لاحظناه في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

بناءً على هذا، فإنّ القرآن المعجز - بعد كون معنى الإعجاز واحداً، وبعد مقارنة العلماء له بسائر الآيات والمعاجز المادية - سيكون حاله كحال بقية الآيات في أنّ عدم توفره لا يؤثر على صدق الرسول في دعوته، فهل هم يقبلون بهذه النتيجة؟! وإذا كان الحال كذلك (وفق مؤدى آرائهم)، فكيف يصح ما يدعونه من أنّ القرآن الكريم هو أعظم دليل على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله)؟!!

إنه لأمر مؤسف حقاً أن يصل الحال في التعامل مع القرآن الكريم ورسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى هذا المستوى، بحيث لا يعرف المسلم الاستدلال الصحيح لإثبات نبوة النبي الكريم، ولا يتمكّن من بيان موقع القرآن الكريم منها، ولا بيان وجه الإعجاز في كتاب ربه، وكل ما يعرفه هو التقليد لعلمائه الذين هم في حقيقة الأمر ليسوا بأحسن حالاً منه.

٤.٩- خلافة رسول الله (ص) وموقع القرآن منها:

من جهة العلاقة بين خليفة الله (نبياً كان أو رسولاً أو إماماً) والناس، وكيفية تعرفهم عليه، لابد أن يكون هناك طريق متوفر لدى جميع الرسل متصف بنفس الخصائص؛ لأنهم من منبع واحد، ومن اختارهم ونصّبهم واحد وهو الله سبحانه، وبالتالي فطريق التعرف على محمد (صلى الله عليه وآله) هو نفسه الطريق الذي به عُرف آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر أنبياء الله (عليهم السلام)، بل وبه يُعرف سائر خلفاء الله بعد محمد (صلى الله عليه وآله) حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الرجوع إلى النصوص الدينية القطعية - إضافة إلى أدلة العقل القطعي - ترشدنا إلى أنّ هناك قانوناً إلهياً بديهياً مؤلفاً من ثلاث فقرات هي: (النص، العلم، أمر الله للمكلفين بطاعة الخليفة المنصب). وقد تناول السيد أحمد الحسن هذا القانون بالشرح والتفصيل بالأدلة العقلية والنقلية في كتابه "عقائد الإسلام"، لكني هنا سأعرضه بشكل مختصر.

فأنت لو كنت صاحب مصنع - مثلاً - وأردت أن تغيب عنه، فحتماً ستختار رجلاً لإدارته تنص عليه باسمه، كما أنّ من تختاره أكيد لديه من العلم والكفاءة ما يؤهله للمهمة، ثم بعد اختيارك له تصدر مرسوماً إدارياً تطلب فيه من جميع العاملين طاعة من نصّبته. هذا بالضبط ما نجده في يوم الاستخلاف الأول على هذه الأرض، فبعد أن نصّب الله سبحانه آدم خليفة له في أرضه، وزوّده بالعلم الذي فاق به سائر المكلفين، أمر المكلفين بطاعته. وهو ما تحكيه لنا الآيات (٣٠ - ٣٤) من سورة البقرة، قال تعالى:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَوَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ".

وما سمعناه عن تنصيب آدم (عليه السلام) نجده في غيره من خلفاء الله على السواء، ومنهم رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله)، فلم يُبعث واحد منهم إلا ومعه نص إلهي منذ أول لحظة ابتدأ فيها بدعوته، ولم يبتدئ واحد منهم بدعوته إلا ويكون مزوداً بعلم إلهي، وكذلك الحال بالنسبة للفقرة الثالثة.

أما النص، فالمقصود به أحد أمرين:

١- شهادة الله بالوحي.
٢- نص الخليفة الإلهي السابق على اللاحق بأمر الله.

يقول السيد أحمد الحسن: (والنص المباشر من الله سبحانه وتعالى يكون بالوحي، كما أوحى الله للملائكة خلافة آدم (عليه السلام). وطريق الوحي المبذول لكل الناس والذي يمكن أن يسمعه كل الناس هو الرؤيا، أما النص من الخليفة السابق فيكون بالوصية، سواء كان مباشراً أم غير مباشر للمنصوص عليه) [١].

ولهذا عرض الله سبحانه نفسه شاهداً على صدق محمد (صلى الله عليه وآله) في آيات كثيرة، منها:

- "وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً" [النساء: ٧٩].
- "لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً" [النساء: ١٦٦].
- "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ" [الرعد: ٤٣].

يقول السيد أحمد الحسن: (وهذه الشهادة وهذا النص مرافق للخليفة منذ اليوم الأول لإعلان دعوته، بل هو مرافق له قبل إعلان دعوته) [٢].

---

١. أحمد الحسن، عقائد الإسلام: ٦٨.
٢. المصدر السابق: ٧٢.

وعلى هذا الأساس أقرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) إيمان سعيد بن العاص وغيره من المسلمين الأوائل كما لاحظنا سابقاً.

وبخصوص النص من الخليفة السابق المباشر على اللاحق، فهو أمر نلاحظه في النصوص الدينية وسيرة الأنبياء بوضوح تام، فما من خليفة إلهي إلا ويعهد إلى من يليه وينص عليه، وهو بالضبط ما فعله رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع علي و أبنائه الطاهرين (صلوات الله عليهم)، كما فعله موسى مع يوشع بن نون (يشوع)، وهكذا الحال في جميع الأنبياء.

ورد في سفر التثنية، الإصحاح ٣١: " وقال الرب لموسى هوذا أيامك قد قربت لكي تموت. أدع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه. فانطلق موسى ويشوع ووقفا في خيمة الاجتماع ١٥ فتراءى الرب في الخيمة في عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة".

(عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أوصى موسى عليه السلام إلى يوشع ابن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى ولد هارون، ولم يوص إلى ولده ولا إلى ولد موسى، إن الله تعالى له الخيرة، يختار من يشاء ممن يشاء، وبشر موسى ويوشع بالمسيح عليهم السلام فلما أن بعث الله عز وجل المسيح عليه السلام قال المسيح لهم: إنه سوف يأتي من بعدي نبي اسمه أحمد من ولد إسماعيل عليه السلام يجيئ بتصديقي وتصديقكم، وعذري وعذركم وجرت من بعده في الحواريين في المستحفظين ...) [١].

أما النص من الخليفة السابق غير المباشر فنجده في مثل بشارة موسى (عليه السلام) وبشارة عيسى (عليه السلام) بمحمد (صلى الله عليه وآله) كما أشار لها الله سبحانه في القرآن الكريم بقوله: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا

١. الكليني، الكافي: ١ / ٢٩٣.

جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" [الصف: ٦]، أو وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالأئمة الاثني عشر والمهديين الاثني عشر من بعده [١].

وتوجد مجموعة من البشارات الواردة بخصوص رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) في نصوص الكتب الإلهية السابقة، يمكن مراجعتها في كتاب "عقائد الإسلام" [٢] للسيد أحمد الحسن، منها:

(حبقوق - الأصحاح الثالث:

«١ صلوة لحبقوق النبي على الشجوية ٢ يا رب قد سمعت خبرك فجزعت. يا رب عملك في وسط السنين أحيه. في وسط السنين عرف. في الغضب أذكر الرحمة ٣ الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه. ٤ وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع وهناك استتار قدرته. ٥ قدامه ذهب الوبأ وعند رجليه خرجت الحمى».

تيمان تعني اليمن، وفاران تعني مكة، فيكون معنى النص أعلاه:

«الله جاء من تيمان»: أي الله جاء من اليمن.

---

١. روى الشيخ الطوسي بسنده إلى الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه عن أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - في الليلة التي كانت فيها وفاته - لعلي عليه السلام: يا أبا الحسن أحضر صحيفة ودواة. فأملا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصيته حتى انتهى إلى هذا الموضع فقال :يا علي إنه سيكون بعدي اثنا عشر إماما ومن بعدهم إثنا عشر مهديا، فأنت يا علي أول الاثني عشر إماما سماك الله تعالى في سمائه: عليا المرتضى، وأمير المؤمنين، والصديق الأكبر، والفاروق الأعظم، والمأمون، والمهدي، فلا تصح هذه الأسماء لاحد غيرك .يا علي أنت وصيي على أهل بيتي حيهم وميتهم، وعلى نسائي: فمن ثبتها لقيتني غدا، ومن طلقتها فأنا برئ منها، لم ترني ولم أرها في عرصة القيامة، و أنت خليفتي على أمتي من بعدي .فإذا حضرتك الوفاة فسلمها إلى ابني الحسن البر الوصول، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابني الحسين الشهيد الزكي المقتول، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه سيد العابدين ذي الثفنات علي، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد الباقر، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه جعفر الصادق، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه موسى الكاظم، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه علي الرضا، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد الثقة التقي، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه علي الناصح، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه الحسن الفاضل، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد المستحفظ من آل محمد عليهم السلام .فذلك اثنا عشر إماما، ثم يكون من بعده اثنا عشر مهديا، (فإذا حضرته الوفاة) فليسلمها إلى ابنه أول المقربين له ثلاثة أسامي: اسم كإسمي واسم أبي وهو عبد الله وأحمد، والاسم الثالث: المهدي، هو أول المؤمنين) الغيبة: ١٥١.

٢. انظر: أحمد الحسن، عقائد الإسلام: ١١١ - ١١٦.

و«القدوس من جبل فاران»: أي القدوس جاء من مكة.

وتعالى الله أنْ يوصف بالمجيء من السماء فكيف من الأرض؟! لأنّ الإتيان والمجي تستلزم الحركة، وبالتالي الحدوث، وبالتالي نفي القدم والأزلية، وبالتالي نفي الألوهية المطلقة. فلا يمكن اعتبار أنّ الذي يجيء من تيمان أو اليمن هو الله سبحانه وتعالى، ولا الذي يجيء من فاران هو الله سبحانه وتعالى. هذا فضلاً عن الأوصاف الأخرى كاليد والأرجل تعالى الله عنها علواً كبيراً، «وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع وهناك استتار قدرته. ٥ قدامه ذهب الوبأ وعند رجليه خرجت الحمى».

وبالتالي فالذي جاء وينطبق عليه الوصف الذي في النص أعلاه تماماً هو عبد الله ورسوله محمد، وآله من بعده؛ حيث إنهم من مكة (فاران) ومحمد وآل محمد يمانيون أيضاً؛ لأنّ مكة تهامية وتهامة من اليمن (تيمان). .....) [١].

ولأجل تلك البشارات الواردة في الكتب السابقة عرف بعض علماء أهل الكتاب محمداً (صلى الله عليه وآله) وشخّصوا أنّ له شأناً عظيماً، بل بعضهم كان ينوي قتله لولا حفظ الله سبحانه له، وقصة بحيرى الراهب وما رآه في النبي (صلى الله عليه وآله) لما كان غلاماً عند سفره مع عمه أبي طالب إلى الشام من علامات ودلالات وردت عندهم في النصوص خير شاهد على ذلك، فإنّ بحيرى بعدما فرغ من رؤية بعض العلامات وسؤال رسول الله توجّه إلى عمه أبي طالب وقال: (ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه، قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإن كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده) [٢].

و أيضاً: البشارات الواردة في الكتب السابقة كانت السبب الذي دعا اليهود للسكن قرب المدينة المنورة، فإنّ أحبارهم كانوا يعلمون - بحسب النصوص التي عندهم - أنها مهاجر النبي الذي سيبعث وقد قرب زمانه فجاؤوا ينتظرونه، لهذا خاطب ابن الهيبان (حبر من أحبار يهود بني قريظة) قومه يوماً فقال لهم: (يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني

١. أحمد الحسن، عقائد الإسلام: ١١٢ - ١١٤.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ١١٨.

من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: إنك أعلم، قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقن إليه يا معشريهود) [١].

وكذلك: قصة إسلام سلمان الفارسي رضوان الله عليه تؤكد ذلك، فإنه لما ترك أصفهان وسافر إلى الشام طلباً وبحثاً عن الحق لازم بعد وصوله بفترة رجلاً صالحاً فيها يتعلم منه ثم لما حضرته الوفاة نصحه بملازمة رجل صالح من أهل الموصل، ثم أرشده الموصلي عند احتضاره إلى رجل من بلدة نصيبين ثم إلى رجل من عمورية، ولما حضرت الأخير الوفاة، استعلم منه سلمان من يلازم، فقال له: (أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه. ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل) [٢].

وأما العلم، فجميع خلفاء الله يتصفون به، فكل حجج الله هم أعلم أهل زمانهم بما يحتاج إليه الناس من علم ديني يتصل بالله سبحانه.

يقول السيد أحمد الحسن: (وخليفة الله هو العالم الذي يمكنه الاستغناء عن غيره من الناس، وليس لأحد من الناس الاستغناء عنه وعن علمه؛ لأنّ الله يوحي إليه كل ما يستجد في دين الله، وكل ما يحتاجه أهل زمانه في دينهم. والعلم الواجب هنا هو العلم الديني الذي يكلف خليفة الله بتبليغه للناس، فلابد أنْ يكون خليفة الله متصلاً بالله ويعلمه الله ما يحتاج إليه في تبليغ رسالته و إيصال الدين الحق الذي يرضاه الله للناس، وكل ما يستجد من أحكام إلهية، والقول الفصل وحسم ما يختلف فيه الناس) [٣].

١. المصدر السابق: ١ / ١٣٩.
٢. المصدر السابق: ١ / ١٤٢.
٣. أحمد الحسن، عقائد الإسلام: ٩٣.

وبخصوص علم رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) وحكمته فيمكن الرجوع إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة ذلك، وبهذا يكون القرآن محققاً للبند الثاني من بنود قانون معرفة الحجة، أي العلم والحكمة.

مع الالتفات إلى أننا لا نريد أن نقول: إنّ وجه الإعجاز (الشامل للقرآن كله؛ موضوع بحثنا) هو العلم والحكمة؛ لأن قانون معرفة الحجة بشكل عام ليس غرض الله سبحانه منه التحدي (كما حصل مع القرآن بالذات) بقدر ما كان تفضلاً منه؛ لتسهيل مهمة التعرف على خلفائه في أرضه، وفي نفس الوقت لئلا يعتذر أحد من الخلق بعدم وجود الدليل المعرّف بهم.

ونحن لاحظنا سابقاً عند استعراض سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) احتجاجه بالعلم والحكمة وإجابته الأسئلة التي كانت توجّه إليه، ضمن مجريات أحداث فجر الدعوة الإسلامية في بداية بعثته المباركة.

أما **الدعوة إلى الله** وأمر الله الناس بطاعة رسوله، فهو أمر واضح وجلي في النصوص وفي سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) معاً.

بهذا يكون الدليل على خلافة رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) تام بقانون معرفة الحجة (النص والعلم والدعوة إلى حاكمية الله) بعد تحلّيه بجميع فقراته، فالنص عليه - مثلاً - لم يحصل من الأنبياء السابقين فحسب ولكن الله سبحانه بعظمته عرض نفسه شاهداً على صدق حبيبه المصطفى، وهذا العرض كان وما زال مستمراً إلى يوم الناس هذا، بل وحتى اليوم الأخير في هذا العالم. كما أنه (صلى الله عليه وآله) ليس مزوداً بالعلم فقط و إنما هو أعلم الأولين والآخرين ولذا صار أفضل الخلق طرّاً، ولو كان القرآن فقط لكفاه شاهداً على ذلك.

ثم إنّ كفاية شهادة القرآن على علم محمد (صلى الله عليه وآله) وحكمته، ليس من جهة لغوية حتماً و إنما - كما بينّا - من جهة أنّ هذا القرآن اللفظي هو صورة وظهور لحقيقة القرآن النورية في العوالم العلوية، وأنّ تلك الحقيقة لم تكن لتظهر بما ظهرت

عليه لولا طهارة الوعاء المظهر لها في هذا العالم وعظمة مقامه وإخلاصه (صلى الله عليه وآله).

أيضاً: لا ينبغي أن نغفل ما تقدم من أنّ محمداً (صلى الله عليه وآله) المخلوق الوحيد الذي انطوت روحه الطاهرة على معرفة القرآن في العوالم العلوية بصورة تامة، فهما من حيث الحقيقة شيء واحد، وتوصلنا فيما سبق - أيضاً - إلى أنّ كل ما عند رسل الله في هذا العالم من خير يعود من حيث الأصل إلى القرآن، وبخصوص رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) فهو بالحقيقة قرآن يسير على هذه الأرض عملياً في علمه وخلقه وسيرته وبكل ما يصدر منه، ولهذا كان الوحيد الذي ظهر القرآن على يديه بأتم صورة ممكنة له في هذا العالم الجسماني.

ولما كان مشروع الله سبحانه الرسالي مع حبيبه محمد (صلى الله عليه وآله) لا يقف عنده فحسب، بل كان في علم الله السابق أنه يمتد بخلفائه وأوصيائه الطاهرين بعده، قرن الرسول الكريم أولئك الأوصياء بالقرآن في حديث الثقلين المشهور: "إني تارك فيكم الثقلين". فالقرآن مستمر بعد محمد (صلى الله عليه وآله) ليكون هادياً لـ "عِدْله" في كل زمان، والعكس صحيح أيضاً بعد أن كان كتاباً متشابهاً على الناس، قال تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا" [الزمر: ٢٣]. نعم، هو محكم كله بالنسبة لمحمد (صلى الله عليه وآله) ولمن يقوم مقامه من خلفائه الطاهرين، قال تعالى: "الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" [هود: ١].

والآن، بعد أن عرفنا الدليل على خلافة رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) وموقع القرآن منها بما أوضحه السيد أحمد الحسن، فإنك إن قارنت ما عرفت بما بيّنه علماء المسلمين يمكنك أن تعرف حجم المظلومية التي تعرّض لها هذان الثقلان العظيمان، أعني القرآن ومحمد (صلى الله عليه وآله)، كما يمكنك أن تدرك - أيضاً - علوّ كعب هذا الرجل - أعني أحمد الحسن - عليهم.

١٠. القول الفصل في إعجاز القرآن:

١٫١٠- شروط الوجه الصحيح:

إذا أردنا بيان الوجه الصحيح لإعجاز القرآن الكريم (والمسألة ترتبط بالعقيدة كما هو واضح)، فلابد أن يكون الوجه ثابتاً بدليل قطعي، وغير مخالف في نفس الوقت لحقائق علمية مبرهنة وصحيحة. وبذلك يتم تجنب الملاحظات والمناقشات التي رأيناها في الوجوه التي ذكرها علماء المسلمين في البحوث المتقدمة.

وحتى نحدّد وجه الإعجاز بشكل صحيح علينا الالتفات إلى:

١- إنّ القرآن كتاب مُوحى ومُنزل، قال تعالى:

- "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ" [العنكبوت: ٤٥].
- "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" [الشورى: ٥٢].
- "الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" [إبراهيم: ١].
- "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ" [النحل: ١٠٢].

كون القرآن مُنزلاً يعني أنّ له وجوداً وحقيقة في عالم أعلى نزل منها، وقد تقدم الكلام في بيان حقيقته، وقلنا إنها ليست لغوية، ويمكن أن تظهر في هذا العالم بأي لغة كانت، ولذلك لا يمكن قبول القول بالإعجاز اللغوي واللفظي للقرآن، والوجه الصحيح لابد أن يكون منسجماً مع هذا الأمر.

٢- إنّ القرآن كتاب إنذار وهداية وتذكرة، قال تعالى:

- "كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" [الأعراف: ٢].
- "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا" [الإسراء: ٩].
- "قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ" [الأنعام: ١٩].

على هذا، فأمر القرآن يعني جميع الناس "لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ"، وبالتالي لا يمكن حصر وجه الإعجاز بالناطق باللغة العربية (العارف بخصائصها) فقط، وإنما لابد أن يكون وجهاً يدركه ويلمسه جميع البشر، طبعاً إن هم أرادوا ذلك. فالقرآن كتابة هداية وتذكرة وإنذار للجميع وليس كتاباً (وحاشاه) لمادة اللغة العربية أو مادة الوطنية ليتم حصره بمجموعة من العرب (العارفون بالفصاحة) دون بقيتهم ودون سائر البشر المعنيين به أيضاً.

ثم إنه ليس كتاب هداية للإنس فقط، ولكن للجن أيضاً، قال تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

٣- إنّ القرآن كتاب تدبّر وذكر، قال تعالى:

- "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" [ص: ٢٩].
- "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" [النساء: ٨٢].
- "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" [محمد: ٢٤].
- "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

القرآن إذن كتاب للتدبّر (وليس للقلقة اللسان)، وليس أيُّ تدبر، وإنما التدبّر الذي يقود إلى التذكّر والاتعاظ، قال تعالى: "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ

مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" [الزمر: ٢٧]. تدبّر يؤدي إلى إنارة القلوب "أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"! وهل فصحاء العرب المشركين يتأتى منهم مثل هذا التدبّر ليتمكنوا من إدراك وجه الإعجاز الحقيقي كما هو مؤدى القول بالإعجاز اللفظي؟

٤- إنّ القرآن كتاب شفاء ورحمة، قال تعالى:

- "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا" [الإسراء: ٨٢].
- "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت: ٥١].
- "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ" [النمل: ٧٧ – ٧٨].
- "فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ" [المزمل: ٢٠].

٥- إنّ القرآن كتاب للاعتصام والاحتجاب، قال تعالى:

- "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا" [الإسراء: ٤٥].
- "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" [النحل: ٩٨].

٦- إنّ القرآن كتاب تلين له القلوب وتقشعر منه الجلود، قال تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" [الزمر: ٢٣].

وربما شملت هذه الحالة غير الإنسان أيضاً بما يلاءم حاله، قال تعالى: "لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" [الحشر: ٢١].

لين قلوب المؤمنين وقشعريرة جلودهم بالذات (دون غيرهم)، يؤكد أنّ إعجاز القرآن أمر يدركه كل من توجه إلى الله سبحانه، لكنه أبداً لا يكون قاهراً لأحد على الإيمان بالله؛ لأن الله سبحانه جعل هذه الدار التي ظهر فيها القرآن دار امتحان واختبار فكيف يُنزل كتاباً يُقهر عباده كلهم على الإيمان، حاشاه سبحانه من مجانبة الحكمة. فبقدر ما كان القرآن سبباً في لين قلوب المؤمنين وجلودهم وهدى وشفاء ورحمة وتذكرة للمؤمن بالله ومن يتوجه إلى الله بقدر ما نجد الظالمين مصرّين على عدم تصديقه، ولهذا كان منطقهم: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ" [فصلت: ٢٦].

لهذا، كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) - بحسب الثابت تاريخياً من سيرته - يذكّر قومه بالله ويتلو عليهم القرآن، ثم يترك القرار لهم، وليس الحال كما صوّره علماء المسلمين من أنه (صلى الله عليه وآله) كان يتحداهم ويطلب منهم معارضة القرآن بفصاحتهم وبلاغتهم! لا يوجد شيء من هذا مطلقاً؛ لا في سيرته ولا في القرآن نفسه، قال تعالى:

- "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [العنكبوت: ٥١].
- "إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ" [النمل: ٩١-٩٢].
- "إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" [الزمر: ٤١].

الآن، وقد اتضحت الصورة أكثر عن القرآن وشروط القول الذي يصلح أن يكون وجهاً لإعجاز القرآن الكريم لم يتبقَ لنا سوى بيانه.

٢,١٠- السيد أحمد الحسن يبيّن القول الفصل في الإعجاز:

إعجاز القرآن يكمن في "تأثيره النفسي والروحي".

١- إنّ هذا التأثير يحصل من خلال: (التوجّه لله + القراءة + التدبّر).
٢- قراءة القرآن بتوجّه لله وتدبّر تكون سبباً في حصول الطمأنينة لدى الإنسان، وليس بالضرورة أن تحصل الطمأنينة من القرآن مباشرة وإنما قد تحصل للقارئ المتدبر بواسطة أمور أخرى (توفرها قراءة القرآن بتوجّه وتدبّر) مثل: الرؤيا، الكشف، رقة القلب، حصول آية معه.
٣- هذا الوجه للإعجاز يكشف السبب الذي دعا مشركي قريش إلى وصف القرآن ومن أتى به بالسحر.
٤- هذا الوجه هو الثابت تاريخياً في سيرة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

يقول السيد أحمد الحسن: (الإعجاز القرآني بالنسبة للمواجهين الأوائل واضح تاريخياً، الرسول جاء بالقرآن أو ببعض آيات القرآن وقرأها على الناس المحيطين به، استمع لها من استمع وكان لها تأثير نفسي عليهم أو رأى بعضهم رؤيا أو حصلت لهم آيات وإشارات جعلتهم يؤمنون، لم يؤمنوا لأنه كلام فصيح وبليغ؛ لأن الفصاحة والبلاغة مسألة نسبية ولا توجد ضابطة تقول إنّ هناك حدوداً إن تجاوزتها يصبح الكلام معجزاً. لهذا قالوا: إنّ محمداً ساحر وكانوا يمنعون نساءهم وشبابهم من سماع القرآن أو قراءته؛ لأن كثيراً منهم حصل له هذا التأثير النفسي أو رأى رؤى. والآن أي شخص بإمكانه التجريب).

ويقول أيضاً في إجابة سؤال عن إعجاز القرآن: (أنا ذكرت سابقاً في الكتب وأيضاً في هذا الكلام بيّنت أنه له تأثير نفسي وروحاني، لهذا وصفوه بأنه ساحر؛ لأن من كانوا يقرأون القرآن ومن يستمعون له كانوا يرون رؤى وما شابه فيؤمنون).

وعن الطمأنينة التي تحصل بسبب القرآن يقول: (إذا كان متوجهاً لله يحصل له الاطمئنان ... ولا يحصل الاطمئنان بقراءة كلمتين أو آية دون فهم أو تدبر وإنما بالقراءة والتدبر، فحتماً إذا كان القرآن من الله سيحصل للقارئ المتدبر الاطمئنان بطريقة ما:

- يرى رؤيا.
- أو يرق قلبه.
- أو يرى كشفاً.
- أو تحصل معه آيات.

هذا هو المقصود، ليس يقرأ بصورة عشوائية وبدون تدبر ودون اهتمام ويحصل اطمئنان، و أيضاً ليس بالضرورة الاطمئنان هو أن يرق قلبه للقرآن مباشرة).

ونحن إذ عرفنا وجه الإعجاز الذي بيّنه السيد أحمد الحسن الآن، فإننا:

أولاً: لو عرضناه على ما تقدم من أوصاف القرآن التي ذكرها القرآن من أنه كتاب: (ذكر، هداية و إنذار، تدبّر، شفاء ورحمة، احتجاب، تلين له القلوب والجلود ...الخ)، وجدناها تنسجم معه تماماً، أي إنّ هذا الوجه للإعجاز يشهد له القرآن الكريم نفسه.

ثانياً: إنّ هذا الوجه ينسجم أيضاً مع حقيقة القرآن النورية في العوالم العلوية، فإنها بعد تجليها وظهورها في هذا العالم بالقرآن اللفظي، وبعد أن كانت هذه الألفاظ تعبر عن معانٍ حقيقية وعلوية تعود في أصلها إلى الله سبحانه كما عرفنا سابقاً، أكيد سيكون له تأثير نفسي وروحي على السامعين إن كانوا يقرؤونه بتدبر وتوجّه. وبالتالي، فما رأيناه من عدم انسجام بين وجه الإعجاز الذي اختاره علماء المسلمين وبين حقيقة القرآن العلوية وكونه مُنزلاً بالوحي غير موجود في هذا الوجه الصحيح للإعجاز، بل الموجود هو العكس تماماً، بمعنى أنّ هناك تمام الانسجام بين حقيقة القرآن وتنزله بالوحي وبين أن يكون له تأثير نفسي وروحي في هذا العالم.

ثالثاً: إنه الوجه الوحيد الثابت تاريخياً في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) التي عرفنا بعضها فيما سبق، وموجود منذ اللحظة الأولى لشروع الرسول بدعوته الإلهية، حيث كان (صلى الله عليه وآله) يتلو القرآن على الناس المحيطين به وتأثر بعض السامعين بتلاوته وكانت سبباً في هدايته للحق؛ إما بسبب القرآن نفسه أو عن طريق رؤى (كما حصل مع خالد بن سعيد وغيره وقد مر) أو آية معينة حصلت معه وما شابه ذلك.

(حكى في الصحيح عن جبير بن مطعم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية "أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون" إلى قوله "المصيطرون" كاد قلبي أن يطير للإسلام، وفى رواية وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي، وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم "حم" فصلت إلى قوله "صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود" فأمسك عتبة بيده على في النبي صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم أن يكف وفي رواية فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وعتبة مصغ ملق يديه خلف ظهره معتمد عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقام عتبة لا يدري بم يراجعه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم وقال والله لقد كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له) [١].

رابعاً: إنّ وجه الإعجاز الذي ذكرناه يعلّل بوضوح نهي كبار قريش قومهم عن الاستماع للقرآن واللغو عند تلاوته، كما حكى الله سبحانه قولهم: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ" [فصلت: ٢٦]. بل بلغ الحال بالناس - خوفاً من كبرائهم وتجنباً لأذاهم - أنهم كانوا يتفرقون عن الرسول (صلى الله عليه وآله) إذا تلا القرآن (فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم "أي خوفاً من كبار قريش"، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته، فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته، وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه) [٢].

وما كان نهي سادة قريش قومهم إلا بسبب تأثير القرآن على نفوسهم وأرواحهم، وبالتالي تقريبهم للحق واهتدائهم إليه.

---

١. القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١ / ٢٧٥.
٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٠٦.

خامساً: إنّ التأثير النفسي والروحي للقرآن يعلّل بوضوح سبب اتهام كبار المشركين للقرآن وللنبي (صلى الله عليه وآله) الذي كان يتلوه بالسحر، وقد قصّ الله سبحانه اتهامهم في آيات كثيرة، منها:

- "ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ....* وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ" [ص: ١، ٤].
- "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" [الأنعام: ٧].
- "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" [سبأ: ٤٣].
- "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" [الأحقاف: ٧].
- "فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ" [المدثر: ٢٤].

(قال علي بن إبراهيم في قوله "فإذا نقر في الناقور- إلى قوله - ذرني ومن خلقت وحيدا" فإنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقعد في الحجرة ويقرأ القرآن فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة، فقالوا: يا أبا عبد الشمس ما هذا الذي يقول محمد أشعر هو أم كهانة أم خطب؟! فقال دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعر ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته و أنبيائه، فقال: أتل علي منه شيئا، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله حم السجدة فلما بلغ قوله فإن اعرضوا - يا محمد - أعني قريشا - فقل لهم أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قال: فاقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته ومر إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد الشمس صبا إلى دين محمد أما تراه لم يرجع إلينا، فغدا أبو جهل فقال له: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا وأشمت بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد، فقال ما صبوت إلى دينه ولكني سمعت منه كلاما صعبا تقشعر منه الجلود،

فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال: لا إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضا قال أفشعر هو قال لا، أما اني قد سمعت أشعار العرب بسيطها ومد يدها ورملها ورجزها وما هو بشعر، قال فما هو؟ قال دعني أفكر فيه فلما كان من الغد قالوا يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا هو سحر فإنه أخذ بقلوب الناس) [١].

النص واضح في الإشارة إلى تأثير القرآن النفسي والروحي في نفوس سامعيه، ولهذا اقترح الوليد بن المغيرة على كبار قريش أن يصفوا القرآن بالسحر؛ لتأثيره وأخذه بقلوب الناس على حد قوله.

وإذا عرفنا أنّ هذا الوجه لإعجاز القرآن (أعني التأثير النفسي والروحي) يشهد له القرآن نفسه وتشهد له سيرة النبي (صلى الله عليه وآله)، إضافة إلى أقوال المعاندين أيضاً، فالدليل عليه - إذن - قائم بنحو قطعي.

والغريب أنّ بعض علماء المسلمين التفت لمثل هذا التأثير للقرآن الكريم في معرض ذكره لوجوه الإعجاز، إلا أنه لم يعره اهتماماً وتركيزاً و إنما ذكره؛ إما استطراداً، وإما في ذيل قائمة الوجوه - التي يتصدّرها الإعجاز اللغوي بالطبع - بعنوان "الروعة"، لكني لم أجد - بحسب تتبعي - أنّ أحداً من علماء المسلمين عموماً تحدّث عن وجه الإعجاز في القرآن "اللفظي" وعلاقته بحقيقته العلوية وكونه كتاباً مُوحى من جهة، وكذلك علاقته بالكتب الإلهية الأخرى من جهة أخرى، مثل الذي رأيناه في كلام السيد أحمد الحسن.

فتلخص مما تقدم:

إنّ وجه الإعجاز الحقيقي الذي طرحناه:

١- يلتقي مع الأوصاف التي مُنحت للقرآن في القرآن نفسه.
٢- تشهد له سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، منذ أول لحظة ابتدأ فيها دعوته الإلهية المباركة.

---

١. القمي، تفسير القمي: ٢ / ٣٩٣ - ٣٩٤.

٣- يتفق مع كون القرآن كتاب إنذار وهداية لجميع الناس؛ لا فرق بين العربي منهم وغيره، وبهذا تتحقق عدالة الله سبحانه في علاقة كتابه الكريم بجميع المكلفين على حد سواء.
٤- ينسجم مع حقيقة القرآن في العوالم العلوية وكونه كتاباً مُنزلاً ومُوحى من الله سبحانه.
٥- يعلّل سبب اتهام القرآن ومن تلاه على الناس بالسحر.

ويترتب على معرفتنا بالوجه الصحيح لإعجاز القرآن عدة أمور:

الأول: إنّ وجه الإعجاز يشمل القرآن كله (سوره وآياته)؛ فقط يشترط أن تكون القراءة بتوجّه وتدبّر ليتحقق التأثير كما عرفنا.

الثاني: إنّ الترجمة الصحيحة لا تبطل إعجاز القرآن، فالإعجاز لا يتعلق باللفظ حتى يقال بانتفائه عند تبدل اللفظ إلى معناه بلغة أخرى، وإنما هو في تأثيره النفسي والروحي ومثل هذا التأثير يبقى موجوداً في حال ترجمة النص القرآني إلى لغات أخرى، فقط يشترط أن تكون الترجمة صحيحة ليبقى النص قرآنياً ويحافظ على تأثيره.

الثالث: إنّ التحدي المذكور في القرآن تحدٍ عام لجميع الناس، فهو كان وما زال مستمراً للناس عموماً؛ العربي منهم وغير العربي، فالجميع مدعو أن يقدّم كلاماً له مثل هذا التأثير النفسي والروحي بأي لغة كانت.

الرابع: التحدي العام لا يختص بالإنس فقط وإنما يشمل الجن والملائكة أيضاً، فالقرآن يؤثر في نفوس الجن وأرواح الملائكة أيضاً كتأثيره في نفوس وأرواح الناس، وبالتالي فهم جميعاً مدعوون للإتيان بمثل تأثيره النفسي والروحي عليهم، وهيهات وأنّى لهم أن يأتوا بمثله، قال تعالى:

- "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [يونس: ٣٨].

- "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" [الإسراء: ٨٨].

واضح من هذه النصوص أنّ التحدي عام يشمل الإنس والجن، بل ويشمل جميع الخلق بما فيهم الملائكة وغيرهم.

وبالنسبة لتأثير القرآن على الجن فقد قصّه القرآن في قوله تعالى: "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا" [الجن: ١-٢].

وأما تأثير القرآن على الملائكة فهو أمرورد ذكره في الروايات، منها:

عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال أمير المؤمنين (عليه السلام) البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عز وجل فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضئ لأهل السماء كما تضئ الكواكب لأهل الأرض وإن البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكرالله عزوجل فيه تقل بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين) [١].

(عن أسيد بن حضير قال بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكنت الفرس ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريبا منها فأشفق أن تصيبه فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال له اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير قال فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا فرفعت رأسي فانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال وتدري ما ذاك قال لا قال تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم) [٢].

إنّ تأثير القرآن على أرواح الملائكة وعلى نفوس وأرواح الجن والإنس هو الوجه في إعجازه، مع الالتفات إلى أنّ تأثر الملائكة والجن بالقرآن لا يعني تأثرهم بلغته وألفاظه

---

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة (آل البيت): ٦/ ١٩٩.
٢. البخاري، صحيح البخاري: ٦/ ١٠٦.

(كألفاظ وكلمات مؤلفة من حروف)؛ لأنهم لا يستعملون - لفهمه وإدراكه - أي لغة من لغات الناس الأرضية لا عربية ولا غيرها، فواضح أنّ الجن من جنس آخر غير جنسنا نحن البشر، له وسائله الخاصة به في التواصل والتعليم. وأما الملائكة فمعلوم أنها من عالم علوي غير عالمنا، وأيضاً له قوانينه ونظامه الخاص به، وقد تقدم أن لا شيء من لغاتنا الأرضية بمستخدم فيها كوسيلة للتعليم والتواصل، وبالتالي فتأثر الجن والملائكة بالقرآن يعني تأثرهم بمعانيه ذات الأصل الإلهي كما عرفنا؛ لأنها معانٍ وحقائق علوية وهي ليست لغوية، وبالتالي فكل مخلوق يمكنه أن يدرك منها بحسب ما هو متاح له من وسائل تفهيم وتعليم في عالمه وبحسب ما يسعه مقامه وإخلاصه.

الخامس: إنّ التأثير الذي يتركه القرآن في نفوس وأرواح السامعين هو تأثير من نوع خاص ولا يشبهه أي تأثير آخر يتسبّب به أي كلام آخر كالشعر أو الرثاء وما شابه في النفوس، وبالتالي فلا وجه للاعتراض على الوجه الذي ذكرناه بحجة أنّ التأثير النفسي قد يحصل من كلام آخر غير القرآن.

بيان ذلك: إنّ ما يحصل من تأثير في نفس الإنسان عند سماعه الرثاء أو الشعر ونحوه هو تأثير يثير فيه جانب من ذكريات أليمة وأسى معين وبشكل عام فهو تأثير عاطفي، في حين أنّ تأثير القرآن في النفوس والأرواح هو تأثير له علاقة بجانب الهداية للحق والقرب من الله سبحانه، ولهذا يقترن عادة بالرؤيا أو الكشف أو حصول آية مع الإنسان المتأثر ترشده وتهديه وتعرّفه بالحق أو أنها تساهم برقيه وتكامله أكثر، فنحن نتحدث عن تأثير من هذا النوع وهو الوجه الصحيح لإعجاز القرآن الكريم.

السادس: لمّا كان القرآن متقوّم بحقيقته العلوية ومعانيه الإلهية التي تحكيها ألفاظه في هذا العالم، فهذا يعني - إضافة إلى إمكان فهمه وادراك سر إعجازه باللغات الأخرى (غير العربية) إن كانت ترجمة النص القرآني صحيحة كما قلنا - إمكان إدراك بعض حقائقه ومعانيه وسر إعجازه أيضاً من قبل الأمّي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكذلك من قبل بعض المصابين بعاهة كالصم والبكم، فهؤلاء جميعاً يمكنهم أن يدركوا ما شاء الله لهم أن يدركوا من حقائق القرآن وتتأثر نفوسهم وأرواحهم بالقرآن بعد تلمّس معانيه بطرق أخرى غير التدبّر في التلاوة أو السماع، مثل: الرؤيا والكشف والإلهام ونحوها من طرق الوحي التي تقدم الحديث عنها. بل ويمكن أن يحصل لبعضهم (بحسب إخلاصهم)

معرفة بمعاني القرآن أو يحصل لديه تأثر نفسي وروحي أكثر مما يحصل لمن يحسن قراءة ألفاظه أو سماعها.

لاحظنا الآن مدى البون الشاسع بين من يقدّم القرآن كتاباً إلهياً بصورة تجعل منه كتاباً امره يعني كل الخلق بأجمعهم وبمختلف مستوياتهم، فهم (الإنس بجميع لغاتهم وكذلك الجن والملائكة) معنيون بإدراك ما يمكنهم إدراكه من حقائقه ومعانيه وسر إعجازه؛ كلٌّ بحسب مقامه وإخلاصه، وبين من يحصره بطائفة خاصة من الإنس بل من العرب؛ وهم العارفون بالبلاغة والفصاحة فقط لا غير!

ملحق

أجوبة السيد أحمد الحسن في موضوع الإعجاز

هذه مجموعة من الأسئلة بخصوص إعجاز القرآن الكريم، طرحت على السيد أحمد الحسن في أكثر من حوار مباشر معه من قبل أكثر من شخص، قمت بترتيبها مع ذكر جوابه عليها؛ تعميماً للفائدة، وفيها يتضح القول الفصل في إعجاز القرآن الكريم.

س١: هناك تركيز في القرآن بأنه نزل بلسان عربي في إحدى عشرة آية، وعندما أقرأ القرآن باللغة العربية أشعر بالارتياح وطمأنينة القلب، ولكن عندما أقرأه باللغة الإنكليزية لا يحصل عندي هذا الشعور! اليوم القرآن مترجم إلى ١١٤ لغة عالمية، لا أعرف هل الهندي عندما يقرأ القرآن المترجم للهندية أو الروسي يقرأ القرآن باللغة الروسية هل يتولد عنده شعور بالارتياح وطمأنينة القلب مثل ما العربي يقرأ القرآن بالعربي؟

ج/ إذا كان متوجهاً لله يحصل له الاطمئنان إذا كانت الترجمة صحيحة، وأنت عربي فأكيد يكون فهمك للعربية وميلك لها.

ولا يحصل الاطمئنان بقراءة كلمتين أو آية دون فهم أو تدبر وإنما بالقراءة والتدبر، فحتماً إذا كان القرآن من الله سيحصل للقارئ المتدبر الاطمئنان بطريقة ما:

- يرى رؤيا.
- أو يرق قلبه.
- أو يرى كشفاً.
- أو تحصل معه آيات.

هذا هو المقصود، وليس يقرأ بصورة عشوائية وبدون تدبر ودون اهتمام ويحصل اطمئنان، و أيضاً ليس بالضرورة الاطمئنان هو أن يرق قلبه للقرآن مباشرة.

أما الآيات - التي ذكرتَ أنها تذكره كقرآن عربي - فلا يوجد تركيز فيها على أنّ هناك فضلاً أو أفضلية للعربية على غيرها، وأغلب الآيات تبيّن أنه نزل بلسان عربي و أنتم عرب فالمفروض تفهمونه بسهولة؛ لأنه نزل بلسانكم.

- "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [يوسف: ٢]: يعني بلغتكم رجاء أن تعقلونه.

- "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ" [الشعراء: ١٩٥]: يعني واضح لكم لأنكم عرب، فهم كانوا المواجهين الأوائل للرسول (صلى الله عليه وآله) وللقرآن.

- وهذه الآية تبيّن أنه لا فرق عند الله أن يكون كتابه بأي لغة، إنما الفرق لدى البشر والناس المتلقين والمواجهين له: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ" [فصلت: ٤٤]: يعني لو كان بلغة أخرى غير العربية لطلب العرب ترجمة له "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" ؟ "أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ"؟!

- "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" [فصلت: ٣]: أي لمن يواجهونه من العرب (المواجهون الأوائل والمتلقون الأوائل)؛ من يطلبون الحق منهم.

- وهذه الآية تبيّن لك أنه لا فرق عند الله سبحانه أن ينزل كتابه أو كتبه بأي لغة، و إنما الفرق عند المتلقي الأول والمتلقين الأوائل أي الرسول والمواجهون له، فلغتهم هي الحاكم على اللغة التي ينزل بها الكتاب؛ لأنهم ولأنه المتلقي الأول والمواجه الأول: "وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ" [الأحقاف: ١٢]: كتاب موسى بلغته ولغة قومه وكتاب محمد بلغته ولغة قومه، فلا يوجد أفضلية لغوية لدى الله سبحانه لا عربية ولا غيرها، بل العوالم الأعلى من هذا العالم الجسماني لا يوجد فيها لغات هذا العالم الجسماني أصلاً، فاللغات أصلاً نتاج تطوري حدث في هذا العالم الجسماني.

س٢: وعن السؤال عن الإعجاز اللفظي للقرآن في لغة العرب، أجاب:

(يعني أكيد الألفاظ بمستو عالٍ، ولكن في و اقع الحال لا يمكن لأي أحد عاقل أن يقول: إن هذا إعجاز لفظي وهذا ليس إعجازاً لفظياً؛ لأنه ما هي ضابطة الإعجاز اللفظي؟ الجواب لا يوجد أي ضابطة علمية و إنما مجرد كلام عشو ائي في الأعم الأغلب.

لماذا لا يكون قول امرئ القيس:

مِكرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدْبِرٍ معًا ... كجُلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ

إعجازاً لفظياً؟

لِمَ لا يكون هذا القول معجزاً لفظياً؟

ولماذا يكون قوله تعالى: "وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ" معجزاً لفظياً؟!

أين الضابطة العلمية الدقيقة في قول إنّ هذه الآية معجز لفظي وقول امرئ القيس ليس معجزاً لفظياً؟ في الحقيقة لا يوجد أي ضابطة مجرد كلام فارغ بدون أي ضابطة علمية).

ويقول أيضاً عن القائلين بالإعجاز اللفظي للقرآن:

(هم يقولون: "القرآن معجز لفظياً، والعرب لم يردوا على إعجازه اللفظي". والقضيتان لا إثبات فيهما. هم يفترضون أنّ تحدي القرآن بالرد هو مسألة الرد اللفظي في حين أنّ هذا أهون شيء، فكل عربي في أي وقت يمكنه كتابة نصوص ولا يوجد قانون علمي حاكم يقول هذا النص معجز لفظياً وهذا لا. الو اقع إذن تفسيرهم خاطئ، القرآن لم يتحدَ للرد اللفظي.

هو موضوع نوعاً ما يسبّب خلافاً وربما جدالاً شديداً ولكنه ضروري، لابد أن يفتح الناس عقولهم ولابد أن توضع الأمور بصورة علمية صحيحة؛ لأن الشباب اليوم لديهم الأنترنت، وهذا الضعف والركاكة في الكلام حول إعجاز القرآن اللفظي مشكلة كبيرة جداً، أغلب الملحدين ربما يجدونها مادة للاستهزاء والطعن في الإسلام.

المسألة علمية وفي هذا الزمان لم يعد هناك سيف السلطان وعليكم أن تقولوا ما يقوله السلطان وإلا قطعت رقابكم، والشباب لديهم الأنترنت ويقرأون. فرض الرأي بالقوة وبالتجهيل بدأ يتلاشى في كثير من المجتمعات وإذا لم يجد الشباب المسلم إجابات مقنعة سيترك القرآن.

ماذا يعني أن تقول له معجزة لفظية ولكن بدون أي ضابطة علمية، فكيف معجزة إذن؟ كيف أستطيع أنا كإنسان عاقل أن أتصور المعجزة اللفظية أقصد بلاغية وما شابه، كيف تكون وما هي ميزتها؟

فمثلاً: هذا كلام الرازي كيف يردون عليه؟ الرازي يقول: "إنكم تدعون أن المعجزة قائمة موجودة - وهي القرآن - وتقولون: "من أنكر ذلك فليأت بمثله". ثم قال: "إن أردتم بمثله في الوجوه التي يتفاضل بها الكلام فعلينا أن نأتيكم بألف مثله من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء وما هو أطلَق منه ألفاظاً وأشد اختصاراً في المعاني، وأبلغ أداء وعبارة وأشكل سجعاً؛ فإن لم ترضوا بذلك فإنا نطالبكم بالمثل الذي تطالبونا به".

المفروض أن يكون الكلام علمياً ورصيناً وخاضعاً لضوابط علمية وحقائق لها قيمة فعلية، أما تقول: "إعجازاً لفظياً بلاغياً" وبدون أي ضابطة فهذا كلام عبثي لا قيمة له).

س٣: ربما ينتظر القارئ للحوار نصف القدح الآخر كما يقال، يعني إذا لم يكن اللفظ القرآني هو المعجز فأين إعجاز القرآن إذن؟

ج/ أنا ذكرت سابقاً في الكتب وأيضاً في هذا الكلام بيّنت أنه له تأثير نفسي وروحاني، لهذا وصفوه بأنه ساحر؛ لأن من كانوا يقرأون القرآن ومن يستمعون له كانوا يرون رؤى وما شابه فيؤمنون.

س٤: إن أردنا أن نتكلم عن الأفضلية بهذا العالم فهل لا توجد للعربية (لغة القرآن) أفضلية أو ميزة على سائر اللغات؟ فاللغة هي (كائن) كما يصفها البعض وبالتالي أكيد سوف يتم مقارنتها مع غيرها من اللغات ويكون هناك تفاضل بين اللغات، فالمعروف عند أهل الاختصاص أن اللغات تختلف في الصفات والمزايا وكثرة أو قلة الجذور و إفادة المعاني بكلمات أقصر أو أطول. فالمعروف أن اللغة العربية تحتل المرتبة الأولى بكثرة الجذور والكلمات والاشتقاقات.

ج/ "فالمعروف أن اللغة العربية تحتل المرتبة الأولى بكثرة الجذور والكلمات والاشتقاقات" أين معروف؟ و أين هي الدراسة العلمية الدقيقة والمعتمدة التي قارنت كل لغات العالم وخلصت إلى هذه النتيجة؟ هناك فقط أنّ اللغة الصينية واللغة العربية لغتان صعبتا التعلم مقارنة بغيرها.

نعم، مجرد كلام غير دقيق، اللغة الإنجليزية فيها كثير جداً من الكلمات التي تحتاج أن توضع أكثر من كلمة حتى تعطي نفس المعنى بالعربية فهل يصح من الإنجليزي أيضاً أن يأتي بهذه الكلمات ويقول إنّ الإنجليزية أكمل! المسألة ليست بهذه العشوائية، إذا كان شخص يريد أن يقول: اللغة العربية أكمل فليتفضل ويعطينا البحوث المعتمدة من الجامعات العريقة حول العالم تقول ذلك، أما عربي يكتب لإثبات أنّ العربية أكمل ويعتبر ما كتبه هو الدليل على ذلك فهذه ليست طريقة علمية ولا قيمة لها.

س٥: هل الكمال في هذا العالم المادي غير ملحوظ عند الله سبحانه مطلقاً؟

ج/ الكمال المادي لا إشكال فيه، ولكن أين هو الدليل القطعي على أنّ اللغة العربية هي الأكمل من بين اللغات الأرضية جميعها، وما هي ضابطة قياس كمال اللغة، ولماذا؟ مع العلم أنّ اللغة العربية قطعاً ليست الأكمل الآن؛ لأنها مفتقدة لكثير من الكلمات العلمية وغيرها التي طرأت منذ أكثر من ألف عام.

س٦: ربما يقال: إنّ هناك كثيراً من العلماء الكبار من الشيعة والسنة قالوا بإعجاز القرآن بلاغياً بل هو المشهور عند المسلمين، فكيف حصل هذا؟

ج/ بالنسبة لأقوال العلماء مختلف فيها، فمن البداية قال بعضهم بالإعجاز البلاغي وقال آخرون: الإخبار عن المستقبل وغيرها، و أقوالهم بحد ذاتها لا قيمة علمية لها و إنما القيمة العلمية للدليل الذي يسوقونه وهو مفقود، يعني المسألة مجرد ظن في أحسن أحوالها بالنسبة للقائلين أنفسهم فضلاً عن غيرهم ممن يريدون إقناعهم. والحقيقة إنّ أغلب الناس ومنهم العلماء في الأزمنة المتأخرة مجرد مقلدين في هذه المسألة، فلا يوجد تحقيق علمي ولا نقد علمي موضوعي للخلوص إلى نتيجة علمية وحقيقة يطمئن لها.

س٧: ما هو حقيقة إعجاز القرآن الكريم بالضبط؟

ج/ الإعجاز القرآني بالنسبة للمواجهين الأوائل واضح تاريخياً، الرسول جاء بالقرآن أو ببعض آيات القرآن وقرأها على الناس المحيطين به، استمع لها من استمع وكان لها تأثير نفسي عليهم أو رأى بعضهم رؤيا أو حصلت لهم آيات وإشارات جعلتهم يؤمنون، لم يؤمنوا لأنه كلام فصيح وبليغ؛ لأن الفصاحة والبلاغة مسألة نسبية ولا توجد ضابطة تقول إنّ هناك حدوداً إن تجاوزتها يصبح الكلام معجزاً. لهذا قالوا: إنّ محمداً ساحر وكانوا يمنعون نساءهم وشبابهم من سماع القرآن أو قراءته؛ لأن كثيراً منهم حصل له هذا التأثير النفسي أو رأى رؤى. والآن أي شخص بإمكانه التجريب.

س٨: إذا كان إعجاز القرآن في تأثيره النفسي، فكيف بالتحدي في الآيات التي يتحدى الله أن يؤتى بمثل القرآن أو حتى بمثل سورة منه؟

ج/ نعم، هو لا يزال التحدي قائماً وليس للعرب فقط، و إنما لكل الناس وبكل اللغات فليأتوا بآية أو كلام له تأثير القرآن على النفس الإنسانية، إذا كان التحدي فقط للعرب فهل بقية الناس غير العرب وهم الغالبية الساحقة غير مخاطبين بالقرآن؟!

س٩: هل يبطل إعجاز القرآن الكريم بالإخلال بنظمه الذي لا يؤثر في غرض الآيات ومقصودها؟

ج/ لا يبطل.

س١٠: هل يبطل إعجاز القرآن الكريم بالترجمة، وإذا كان لا يبطل فلِمَ لا يكتفى في تكبيرة الإحرام أو القراءة في الصلاة بالترجمة لغير العربي، وبالنسبة لعلماء المسلمين عموماً يرون أنّ سبب بطلان الصلاة في تلك الحالة هو أنّ الترجمة تبطل الإعجازوليست قرآناً؟

ج/ لا يبطل، ولكن الترجمة بعض الأحيان خاطئة فتخرج النص عن كونه قرآنياً، وتكبيرة الإحرام والصلاة يأتي بها بحسب إمكانه لتوحيد لغة الصلاة بين المسلمين.

س١١: بعد عدم كون إعجاز القرآن لفظياً، ما هو الفرق بين القرآن والحديث القدسي والنبوي؟

ج/ الإعجاز اللفظي طبعاً المقصود به البلاغة وما شابه، والحقيقة إنه لا فرق بين ما ذكرت من هذه الجهة، ولا فرق بينها وبين كلام بقية العرب إلا بقدر كون كل كلام خاص بمتكلمه أي له خصوصية الأصالة فلكل متكلم خصوصية بكلامه ومن يأتي بمثلها يكون مقلداً له.

س١٢: هل أنّ لفظ القرآن صياغة إلهية محضة لم يكن للنبي (صلى الله عليه وآله) دور فيها، أم أنّ النازل عليه عبارة عن حقائق تكشف له ويصوغها هو بلسانه ولسان قومه؟ ونفس هذا السؤال يمتد إلى التوراة والإنجيل أيضاً.

ج/ اللفظ القرآني ليس صياغة إلهية.

اللفظ القرآني يتشكل في نفس الرسول حيث إنّ أصله المعنوي من الله سبحانه ويتشكل كلفظ في نفس الرسول من خلال الألفاظ التي يختزنها عقله من محيطه تماماً كالرؤى فهي معاني مرسلة تتشكل وفق ما متوفرلدى الرائي من ألفاظ وصوروبها تنقل له الرسالة من الرؤيا.

نتائج البحث:

خلصنا في هذا البحث إلى:

١- إنّ علماء المسلمين اختلفوا في بيان وجه إعجاز القرآن الكريم وذكروا وجوهاً متعددة، ولم يقف اختلافهم عند هذا الحد وإنما سرى إلى أغلب المسائل التي تتعلق بالإعجاز، ما يعكس بوضوح تام أنّ المسألة عندهم ظنية وقائمة على الاحتمال وليست قطعية ومبنية على الدليل القطعي والمحكم؛ خصوصاً بعد ملاحظة كثرة مناقشات بعضهم لبعض في ما ذكروه من وجوه محتملة للإعجاز.

٢- الإعجاز اللغوي واللفظي للقرآن من خلال بلاغته وفصاحته (منفرداً أو منظماً لوجوه أخرى) هو عمدة وجوه الإعجاز بنظر الأغلبية الساحقة لعلماء المسلمين بشتّى طوائفهم وفرقهم، لكن هذا الوجه لا يمكن قبوله؛ لأن البلاغة والفصاحة مسألة نسبية وذوقية باعترافهم ولم يتم تحديد ضابط ومعيار علمي دقيق لتمييز (الكلمة أو الكلام) الفصيح عن غيره ولا لتمييز الفصيح عن الأكثر فصاحة فضلاً عن تمييز المعجز في فصاحته عمّا سواه.

٣- لا يمكن قبول مقولة الإعجاز اللغوي للقرآن؛ لأن القرآن الكريم كتاب إلهي مُنزل ومُوحى من عوالم علوية، أما اللغة فهي نتاج تطوري أرضي سواء على مستوى توفر القالب اللغوي البيولوجي في وجود الإنسان أو على مستوى المفردات، فكلا الأمرين يسيران مع الإنسان من البساطة إلى التعقيد، ومسألة تطور اللغة واستكمالها التدريجي أمر تجمع عليه بحوث ودراسات علم اللغة الحديث وتقرّه بعض البحوث القديمة أيضاً.

٤- بخصوص اللغة العربية، ما يُدّعى من مزاعم في تفضيلها على سائر اللغات وبالتالي قدرتها على حمل الإعجاز القرآني دون سواها، مجرد تباهي وكلام غير علمي تماماً، بل الثابت علمياً - وفق بحوث ودراسات علم اللغة الحديث - أن لا مبرر ولا غرض علمي حقيقي يدعو للتفاضل بين اللغات مطلقاً؛ لأن اللغة - أي لغة كانت - ما هي إلا ظاهرة إنسانية واجتماعية الغرض منها التفاهم والتواصل بين المجتمع اللغوي وهو أمر

يحصل بجميع اللغات كما هو واضح. وأما الآيات القرآنية التي ذكرت أنّ القرآن بـ "لسان عربي"، فهي ليست بصدد تفضيل اللغة العربية على غيرها بقدر ما كانت لبيان أنّ القرآن نزل بلغة العرب (المواجهين الأوائل له) رجاء أن يعقلونه.

٥- كون القرآن كلام الله لا يعني بحال أنّ الله سبحانه يتكلم بلغة؛ لأن اللغة تعبر عن نقص وحاجة ومتصفة بصفات الحوادث التي يتنزه عنها سبحانه، والحقيقة إنه لا فرق عند الله سبحانه أن يظهر كتابه الكريم في هذا العالم بأي لغة. وأما انطباعه باللغة العربية في هذا العالم فهو أمر فرضه الرسول الإلهي المتلقي له والمواجهين الأوائل للدعوة الإلهية.

٦- القرآن كتاب إلهي مُوحى (نزل بالوحي) من عوالم علوية، والوحي لا علاقة له باللغة الأرضية، كما أنّ العوالم العلوية الموحى منها ليست فيها أي لغة من اللغات الأرضية؛ لأنها عوالم أرقى وأكمل وبالتالي فوسائل التعليم والتواصل فيها تناسب رقيها، وأما اللغة فهي من لوازم عالمنا الجسماني فقط وهي وسيلة للتعليم والتواصل فيه وليس دائماً؛ إذ يمكن الاستغناء عنها في حالات مع ملاحظة أنّ التعليم والتواصل يكون بنحو أفضل و أتم.

٧- القرآن متقوّم بحقيقته ومعانيه العلوية ذات الأصل الإلهي، ولا يتقوّم بلفظه العربي ليكون وجه إعجازه فيه، كما أنّ سائر الكتب الإلهية الأخرى ما هي إلا جزء من القرآن بهذا المعنى، بل كل ما عند الأنبياء والرسل من خير وعلم وحكمة يرجع في أصله إلى حقيقة القرآن العلوية، وبالتالي فجعل الفرق بين القرآن وغيره من سائر الكتب الإلهية الأخرى أو بينه وبين الأحاديث القدسية والنبوية لغوياً فقط هو في الحقيقة إعدام للفرق بين القرآن وبينها جميعاً.

٨- دلالة القرآن على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) بالمعنى الذي ذكره علماء المسلمين من أنّ عجز العرب عن الإتيان بمثل فصاحة القرآن وبلاغته - بعد أن تحداهم بذلك - يكشف صدق الآتي به، لا يرجع إلى معنى محصل وصحيح أصلاً، والصحيح في إثبات رسالة النبي (صلى الله عليه وآله) هو انطباق قانون معرفة الحجة الإلهي - الثابت

عقلاً ونقلاً - بتمامه عليه. نعم، يمكن أن تكون معارف القرآن وعلومه محققة للبند الثاني من بنود قانون معرفة الحجة أي العلم والحكمة.

٩- لا دليل - قرآنياً كان أو روائياً - يؤكد أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) تحدّى العرب أو غيرهم وطلب منهم معارضة القرآن من جهة الفصاحة والبلاغة، بل الثابت هو أنّه (صلى الله عليه وآله) كان يدعو قومه إلى الله بالحكمة ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن، ويترك قرار الإيمان من عدمه بيد المستمع.

١٠- الوجه الصحيح لإعجاز القرآن الكريم يكمن في تأثيره النفسي والروحي، فأي قارئ أو مستمع له بتدبّر وتوجّه يحصل له مثل هذا التأثير والاطمئنان الذي له صلة بهداية الإنسان ومعرفة الحقيقة. وهو الوجه الوحيد الذي يشهد له القرآن وسيرة النبي (صلى الله عليه وآله) وينسجم مع عالمية الكتاب الإلهي وعدم اختصاصه بفئة أو ثلة معينة من الناس.

والحمد لله وحده.

مصادر البحث

القرآن الكريم

١. الحسن، أحمد الحسن، وهم الإلحاد، شركة نجمة الصباح للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد، ط٢، ٢٠١٧.

٢. الحسن، أحمد الحسن، المتشابهات، شركة نجمة الصباح للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد.

٣. الحسن، أحمد الحسن، عقائد الإسلام، شركة نجمة الصباح للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد، ط١، ٢٠١٦.

كتب الروايات وما يتعلق بها:

٤. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية - طهران.

٥. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، عيون أخبار الرضا، تعليق: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الاعلمي، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨٤ م.

٦. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، الأمالي، تحقيق: مؤسسة البعثة - قم، ط١، ١٤١٧.

٧. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

٨. الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، تحقيق: ميرزا حسن كوجه باغي، منشورات الأعلمي - طهران، ط٤، ١٤٠٤ هـ.

٩. الطوسي، محمد بن الحسن، الغيبة، تحقيق: عباد الله الطهراني وعلي أحمد ناصح، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة، ط١، ١٤١١ هـ.

١٠. الكراجكي، أبو الفتح محمد بن علي، كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي - قم، ط٢.

١١. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١ م.

١٢. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٠ م.

١٣. الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٨٣ م.

١٤. البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٠ م.

١٥. السيوطي، جلال الدين عب الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
١٦. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٨٣ م.
١٧. ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي بن ميثم، شرح نهج البلاغة، نشر دفتر تبليغات إسلامي - قم.
١٨. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الفائق في غريب الحديث، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٩٩٦ م.
١٩. الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث - قم المقدسة، ط٢، ١٤١٤ هـ.

كتب التفسير وعلوم القرآن:

٢٠. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تحقيق: السيد طيب الموسوي الجزائري، منشورات مكتبة الهدى، مطبعة النجف، ١٣٨٧ هـ.
٢١. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القران، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٩ هـ.
٢٢. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٥ م.
٢٣. الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٧٥ م.
٢٤. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
٢٥. البرورجردي، حسين، تفسير الصراط المستقيم، تحقيق: غلام رضا البروجردي، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، ١٤١٩ هـ.
٢٦. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٧. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، شركة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٩٦٦ م.
٢٨. الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨١ م.
٢٩. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم - الدار الشامية، دمشق - بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ.

٣٠. السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار، تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن - الرياض، ط ١، ١٩٩٧ م.

٣١. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل.

٣٢. الأندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣ م.

٣٣. القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٩٨٥ م.

٣٤. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد المحمود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١ م.

٣٥. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٩٢ م.

٣٦. الآلوسي، شهاب الدين محمود شكري، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٣٧. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط ٣.

٣٨. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ٣، ١٩٩٣ م.

٣٩. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ هـ)، دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمد شاكر.

٤٠. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، الحاشية على الكشاف، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأخيرة، ١٩٦٦ م.

٤١. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد أيوب، دار الفكر، لبنان - بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.

٤٢. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٧ م.

٤٣. البهوتي، منصور بن يونس، كشف القناع، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٧.

٤٤. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي، أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٤ م.

٤٥. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب، ط ٢، ١٤٠٤ هـ.

٤٦. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير، نشر عالم الكتب.

٤٧. المعتزلي، أبو الحسن الرماني المعتزلي، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، نشر دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٧٦ م.
٤٨. الطباطبائي، السيد محمد حسين، القرآن في الإسلام، تعريب: السيد أحمد الحسيني،

كتب العقائد:

٤٩. الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، تحقيق: عصام عبد السيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيوت - لبنان، ط ٢، ١٩٩٣ م.
٥٠. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، أوائل المقالات، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط ٢، ١٩٩٣ م.
٥١. الطوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد، منشورات مكتبة جامع جهلستون - طهران، ١٤٠٠ هـ.
٥٢. المرتضى، علي بن الحسين، المقنع في الغيبة، تحقيق: السيد محمد علي الحكيم، نشر مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث - قم، ط ١، ١٤١٦ هـ.
٥٣. ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي بن ميثم، قواعد المرام في علم الكلام، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، نشر مكتبة المرعشي النجفي، ط ٢، ١٤٠٦ هـ.
٥٤. الباقلاني، أبو بكر بن الطيب، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ط ٢، ٢٠٠٠ م.
٥٥. الايجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، المواقف، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٧ م.
٥٦. أبو الصلاح الحلبي، تقي بن نجم، تقريب المعارف، تحقيق: فارس تبريزيان الحسون، الناشر: المحقق، ١٤١٧ هـ.
٥٧. المحقق الحلي، أبو القاسم جعفر بن الحسن، المسلك في أصول الدين، تحقيق: رضا الأستاذي، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية - إيران، ط ١، ١٤١٤ هـ.
٥٨. المظفر، محمد رضا، عقائد الامامية، تقديم: د. حامد حفني داود، انتشارات أنصاريان، إيران - قم.
٥٩. القوشجي، علاء الدين علي بن محمد، شرح تجريد الاعتقاد.
٦٠. السبحاني، جعفر، الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، بقلم: حسن محمد مكي العاملي، الدار الإسلامية.
٦١. السبحاني، جعفر، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، تعريب: جعفر الهادي، مؤسسة الصادق (عليه السلام)، ١٩٩٨ م.
٦٢. ابن تيمية، أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، طبعة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم.

كتب الفقه وأصوله:

٦٣. الطوسي، محمد بن الحسن، المبسوط في فقه الإمامية، تعليق: محم تقي الكشفي، نشر المكتبة المرتضوية.

٦٤. العلامة الحلي، الحسن بو يوسف بن المطهر، تذكرة الفقهاء (ط.ج)، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث- قم، ط١، ١٤١٤ هـ.

٦٥. الشهيد الأول، محمد بن جمال الدين مكي العاملي، ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، تحقيق: مؤسسة أل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث - قم، ط١، ١٤١٩ هـ.

٦٦. الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، المقاصد العلية في شرح الرسالة الألفية، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية - قم، انتشارات دفتر تبليغات إسلامي، ط١، ١٤٢٠ هـ.

٦٧. الأنصاري، مرتضى، كتاب الصلاة، إعداد: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، مؤسسة الهادي - قم، ط ١، ١٤١٥ هـ.

٦٨. الصدر، محمد، ما وراء الفقه، دار المحبين، إيران - قم، ط ٣، ٢٠٠٧ م.

٦٩. السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي، فتاوي السبكي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٧٠. النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف، المجموع شرح المهذب، دار الفكر.

٧١. السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد، أصول السرخسي، تحقيق: أبو الوفاء الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٣ م.

٧٢. ابن حزم، أبو محمد علي بن جزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد شاكر، نشر زكريا علي يوسف، مطبعة العاصمة بالقاهرة.

٧٣. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، المنخول من تعليقات الأصول، تحقيق: محمد حسن هيتو، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط٣، ١٩٩٨ م.

٧٤. الآمدي، علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، تعليق: الشيخ عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي.

٧٥. الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله، البحر المحيط في أصول الفقه، تعليق: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٠ م.

٧٦. الصدر، محمد باقر، المعالم الجديدة للأصول، إصدار مكتبة النجاح - طهران، ط٢، ١٩٧٥ م.

٧٧. الفياض، محمد إسحاق، محاضرات في أصول الفقه (تقرير بحث الخوئي)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط١، ١٤١٩ هـ.

كتب سيرة وتراجم:

٧٨. الحميري، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده - مصر، ١٩٦٣ م.

٧٩. القاضي عياض، أبو الفضل عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.

٨٠. البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: د. عبد المعطي فلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٥ م.

٨١. ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، دار صادر - بيروت.

٨٢. أبن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

كتب لغة وعلومها:

٨٣. ابن منظور، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم - إيران، ١٤٠٥ هـ.

٨٤. الزبيدي، أبو فيض محمد مرتضى الواسطي الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤ م.

٨٥. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.

٨٦. البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٨ م.

٨٧. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العنصرية - بيروت، ١٤١٩ هـ.

٨٨. السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، تعليق: نعيم زرزور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨٧ م.

٨٩. ابن فارس، أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، نشر محمد علي بيضون، ط١، ١٩٩٧ م.

٩٠. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، تحقيق: محمد علي النجار.

٩١. الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق: محسن مهدي، دار المشرق - بيروت، ١٩٧٠ م.

٩٢. الهمداني، عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط١٤، ١٩٦٤ م.

٩٣. النيسابوري، عبد الملك الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: د. محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨٣ م.

٩٤. الجرجاني، علي بن عبد العزيز (القاضي الجرجاني)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٩٥. العميدي، محمد بن أحمد بن محمد، الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى، تحقيق: إبراهيم الدسوقي البساطي، دار المعارف - القاهرة، ١٩٦١ م.
٩٦. القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم، دار الجيل - بيروت.
٩٧. التفتازاني، أسعد الدين، مختصر المعاني، منشورات دار الفكر - قم، ط١، ١٤١١ هـ.
٩٨. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث - القاهرة، ط ٣.
٩٩. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، همع الهوامع في شرح الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية - مصر.
١٠٠. المغربي، أحمد بن محمد ابن يعقوب، مواهب الفتاح في تلخيص المفتاح، تحقيق: د. خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١٠١. القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١٠٢. الشيرازي، أحمد أمين، البليغ في المعاني والبيان والبديع، انتشارات فروغ قرآن، ط١، ١٤٢٢ هـ.
١٠٣. الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية علم المعاني، مراجعة: عبد القادر حسين، نشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ط ٢، ١٩٩١ م.
١٠٤. أبو موسى، محمد محمد أبو موسى، خصائص التركيب، نشر مكتبة وهبة، ط٧، ١٩٩٦ م.
١٠٥. الثبيتي، عامر بن عبد الله، المآخذ على فصاحة الشعر، الجامعة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٧ م، متاح على:
http://www.mohamedrabeea.com/books/book١_٦٠٥٧.pdf
١٠٦. فندريس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، المركز القومي للترجمة - القاهرة، ٢٠١٤ م.
١٠٧. دي سوسير، فرديناند، علم اللغة العام، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية - بغداد، ١٩٨٥ م.
١٠٨. تشومسكي، نعوم، المعرفة اللغوية، ترجمة: محمد فتيح، دار الفكر العربي - القاهرة، ط١، ١٩٩٣ م.
١٠٩. ليونز، جون، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، ١٩٨٥ م.

١١٠.بنكر، ستيفن، الغريزة اللغوية، تعريب: د. حمزة بن قبلان المزيني، دار المريخ للنشر – الرياض، ٢٠٠٠ م.
١١١.وافي، علي عبد الواحد، اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٩٨٣ م.
١١٢.الخولي، أمين، مشكلات حياتنا اللغوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ م.
١١٣.فريحة، أنيس، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٨١ م.
١١٤.بشار باقر، مفهوم الفصاحة بين اللغة والشريعة، بحث علمي، معهد الدراسات العليا الدينية واللغوية، ٢٠١٨ م، متاح على هذا الرابط:
https://www.ihelrs.com//١٢٨٣
١١٥.الحسيني، عباس كاظم، العوامل التي أسست لظهور اللغة، رسالة دكتوراه، معهد الدراسات العليا الدينية واللغوية، ٢٠١٩ م، متاحة على هذا الرابط:
https://www.ihelrs.com//١٤٨٧

كتب أخرى:

١١٦.المرتضى، رسائل الشريف المرتضى، تقديم: أحمد الحسيني، دار القرآن الكريم - قم، ١٤٠٥ هـ.
١١٧.الراوندي، قطب الدين، الخرائج والجرائح، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام) - قم المقدسة.
١١٨.الطوسي، ابن حمزة، الثاقب في المناقب، تحقيق: نبيل رضا علوان، مؤسسة أنصاريان - قم المقدسة، ط٢، ١٤١٢ هـ.
١١٩. الداماد، محمد باقر بن محمد، الرواشح السماوية، تحقيق: غلام حسين قيصريه ها ونعمت الله الجليلي، دار الحديث للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٢ هـ.
١٢٠.كاشف الغطاء، جعفر كاشف الغطاء، كشف الغطاء عن مهمات الشريعة الغراء، انتشارات مهدوي - أصفهان.
١٢١.الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار إحياء التراث العربي.
١٢٢. غرين، برايان، الكون الأنيق، ترجمة: د. فتح الله الشيخ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥ م.
١٢٣. هوكنج، ستيفن، التصميم العظيم، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م.

مواقع إلكترونية:

١٢٤. https://arabic.rt.com/news/٨١٠٠٣٠
١٢٥. https://arabic.rt.com/news/٧٨٦٩٨٢
١٢٦. http://www.alnoor.se/article.asp?id=٣٣٣٢٢٤
١٢٧. https://binbaz.org.sa/fatwas/١٠١٥٢
١٢٨. http://www.hodaalquran.com/rbook.php?id=١١٣٤٩&mn=١
١٢٩. https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=٨٣٩٥
١٣٠. http://alwatan.com/details/١٢٢٩١٤
١٣١. https://phys.org/news/٠٧-٢٠١٩-scientists-unveil-first-ever-image-quantum.html